طريدة البغاة

المرأة في عصر الديمقراطية

بحث حر في تأييد حقوق المرأة

بقلم

اسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى القاهرة

طريدة البغاة

المرأة في عصر الديمقراطية

بحث حر في تأييد حقوق المرأة

بقلم

إسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى القاهرة

القسم الأول

تطور مشكلة المرأة فى العالم الغربى

الفصل الأول

المراة قديما وحديثا ـ المراة وخطى التطور الاجتماعى ـ المراة وأثرها فى بناء المدنية ـ غريزة الرجل للحاضر ، وغريزة المراة للمستقبل ـ المرأة فى المدنيات القديمة ـ اليونان والرومان ـ العصور الوسطى ـ حقوق المراة حديث جديد ـ روسو ـ المراة ملهاة الرجل ـ الدعوة الى الحرية وانها حق طبيعى مناقض للقول بحرمان المراة من حقوقها السياسية ـ خطأ القول بأن الحرية حق طبيعى للرجل دون المراة ـ مارى وولستونكرافت ـ المراة شريكة الرجل عقليا وسياسيا ـ شارلز فوكس ـ جرمى بنتام ـ بايلى ـ قانون الاصلاح الانجليزى سنة ١٨٣٢ ـ المراة من الطبقة العليا أجدر بالحق السياسى من رجل الطبقة الدنيا فى الجمعية .

— ١ —

المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة فى بناء المدنية الحديثة . ولم تكن المرأة فى العصور القديمة أقل أثرا منها فى العصور المتأخرة . فالقبائل البدائية ، وبخاصة تلك التى اتخذت عادات البدو فى الارتحال من مكان الى مكان ، والجماعات التى عاشت بالصيد ، والعشائر التى اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة والضرب فى مناكب الأرض ، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم .

شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور فى العمل ،

وأخذت بضلع فى كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة ، وكانت من العوامل الأولية فى انتشار جماعات الانسان فى بقاع من الأرض ، لولا فضلها فى العمل ، وتدبيرها شئون الأسرة ، لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها أو يكشف عنها . وكانت للرجل ولاشك سلاحا من أمضى أسلحته ، ودرعا من أقوى دروعه ، وحافزا من أولى حوافزه ، وكفاها أن تكون أول من أنشأ فلاحة الأرض ، وأول من اكتشف كيف تنبت الحبة فتثمر فى أزمان دورية . فكان هذا بداية الحضارة الزراعية فى العالم القديم ، وأساسها الأول فى العالم الحديث . ولا ريبة فى أن اكتشاف النار ، ووضع أصول الزراعة ، سببان لولاهما لما نشأت المدنيات التى استقرت ، أول ما استقرت ، على شواطىء الأنهار العظمى .

قال ولز يصف حال الجماعات الأولى :

« على أن أكثر العمل المضنى الذى كانت تحتاج اليه الجماعات كان من نصيب النساء . فان الرجل البدائى لم يكن يفهم للشهامة ولا للنخوة أو النجدة معنى . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شىء الا أسلحتهم ، وهم على استعداد لدفع الطوارىء ، ولاشك فى أن العناية بالأطفال أيضا كانت من نصيب النساء » .

ثم قال : « كانت هذه الحال سببا فى أن يذهب البعض الى القول بأن النساء كن أول من بدأ فى فلح الأرض . وهذا المذهب لا تنقصــه المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الأكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لأن الرجال كانوا يخرجون دائما فى جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد أن يكون النساء هن اللائى لاحظن أن الحبوب تنمو فى الأمكنة التى كانت من قبل مخيما لجماعات أخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الأرض قربانا لآله من الآلهة عسى أن يعوض عليهم ما بذروا أضعافا تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك فى أن أول طور من الأطوار التى تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذره الغير . فان الجماعات التى كانت لا تزال فى طــور « الرعاوة » يرجح أن يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الأول » .

ولقد تابعت المرأة خطى التطور الذى لازم الرجل فى جهاده الشاق نحو الكمال والمدنية . فاذا كان الرجل قــد ضحى بالكثير من جهده العضلى والعقلى فى بنــاء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع ، والــكشف عن أسرار المجهولات ، فقد ضحت المرأة بجهد نفسى ، وأسرفت فى الانفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها ، ما قــد يتضاءل أمامه

ما أنفق الرجل من جهد العمل والانتاج . واذا كان التاريخ على ما يقول « هينى » : ليس سوى الأطمار الخلقة التى خلفها الروح الانسانى على مر العصور ، فان فى ثنايا تلك الأطمار من روح المرأة قدرا يساوى ما فيها من روح الرجل ، ان لم يكن أكثر ، اذا لم نخش المبالغة .

ولقد عانت المرأة من عنف الرجل طوال أحقاب لا يحصيها العد ، ما لو استطعنا أن نقدره ، لفاق جهدها فى ذلك وحده، كل ما نقدر للرجل من جهد العمل على اقامة دعائم المدنية والحضارة . فلو لم تخصها الطبيعة بتلك الخواص النفسية الفذة ، وذلك الادراك العميق لمختلف نزعات الرجل ، وتلك القدرة العجيبة على اختيار مواقف الكر حيث يجدى ، والفر حيث يفيد ، والاقدام حيث يكون الاقدام نصرا ، والدفاع حيث يكون الاقدام هزيمة ، مدفوعة الى ذلك بغريزة فيها تدفعها الى حفظ ذلك النوع الذى يطلق عليه الاحيائيون اسم « الانسان العاقل »[1] اصطلاحا ، لظل ذلك الكائن البدائى فى جحوره المظلمة ، وكهوفه المرطوبة ، وغاباته الموحشة ، حيوانا لا يفرقه عن بقية الحيوان غير انتصاب القامة .

ذلك بأن الطبيعة قد وجهت غريزة الرجل الى العمل للحاضر وحده ، ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل .

---

(١) Homo sapiens

تحمل وتلد وترضع وتربى وتعلم ، وتحارب نزوات الرجل بالضعف اذا صلح ، وبالقوة اذا حزب الأمر ، موجهة كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئين : الأسرة والولد . الأسرة للحاضر، والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنم ولا ربح . ومن ثم كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية .

— ٢ —

لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعى فى العصر المصرى القديم شيئا يتيح لنا البحث فى شئونها بحيث نحدد مكانتها فى ذلك المجتمع تحديدا يرضى التاريخ الصحيح . ولكن يكفى أن نعرف أنها بلغت من المكانة فى ذلك المجتمع ما لم نر له مثيلا فى الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد بلغت فى مصر القديمة مرتبة الملك ، وكفى بذلك دليلا على أنها بلغت فى مصر ، وفى فجر التاريخ البشرى ، منزلة السلطة العليا فى دولة استبدادية ، لا أثر للديموقراطية فيها . ولم تبلغ فى الحضارة اليونانية من الأثر العملى ما بلغت فى الحضارة الرومانية . ومن أعجب حقائق التاريخ ، أن تتبوأ المرأة أعلا مدارج المجتمع فى حكومة استبدادية كحكومة مصر القديمة ، وتتوارى من أفق المجتمع كله فى بلاد اليونان ، التى ورثنا عنها النظم الديموقراطية الحديثة . ولا شك فى أنها كانت ذات أثر بالغ فى حياة الرومان ، حتى لقد وجهت سياسة الدولة فى عصر

أوغسطوس ، أول قياصر الرومان ، زمنا خص بأنه شهد نشأة الامبراطوريات العظمى فى العالم .

وهكذا كان للمرأة أثر بيّن فى تاريخ الانسان فى عصور همجيته وفى عصور تمدينه ، وسوف يكون لها فى المستقبل أثر أعظم ، وتاريخ أروع وأخلد .

— ٣ —

لما سقطت الدولة الرومانية ، وحطمها الهمج الذين هبطوا أوربا من فجاج آسيا ، وورثت أوربا عنهم نظام القطائع ، انكفأت المرأة بغريزتها راجعة الى تلك الحدود التى لزمتها خلال عصور الهمجية الأولى ، ونزلت عن تلك المكانة السامية التى تربعت على عرشها فى بعض المدنيات القديمة . ولقد ظلت المرأة على هذه الحال حتى كانت العصور الحديثة ، فأخذت فى أوربا شيئا من مكانتها التى بلغتها فى مصر القديمة، اذ تربعت على عرش الملك ، ورن صوتها الغرد فى فجاج التاريخ مرة أخــرى .

عند ما أدركت أوربا الثورة الصناعية ، ولفتها مبادىء الحرية الديموقراطية ، وماشت المرأة الرجــل فى التعليم ، تطلعت الى حقوقها السياسية ، وأخذت تعمل جاهــدة فى سبيل تحقيقها لتكمل بذلك ذاتيتها . فلئن كانت المــرأة قد حققت ذاتها وأثبتت وجودها فى ميادين كثيرة كالأمومة

والزوجية والأسرة والجهاد والحرب والملك ، فانها ولا شك تجنح اليوم الى أن تكمل ذاتيتها بأن يكون لها فى ميدان السياسة والاجتماع والعمل ، تلك الحقوق التى حرمتها خلال العصــور الغابرة . تلك الحقــوق التى لا ينكرها الشرع ولا تأباها الطبيعة .

***

ان الكلام فى حقوق المرأة حديث جديد فى المدنية . فبعد أن سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذى تربعت من فوقه فى العصر الرومانى، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى، فقبعت راضية ، حتى أدركتها العصور الحديثة ، فهبت من غفوتها تطالب بحقوقها السياسية ، تلك الحقوق التى ساوت فيها الرجل مساواة تامة . أما بداية جهادها فى سبيل ذلك ، فيرجع الى ما قبــل الثورة الفرنسية فى أواخر القــرن الثامن عشر ، اذ بدأت تحتل مشكلتها العالمية مكانا فى آداب الأمم الغربية .

غير أن جهاد المرأة فى ذلك العصر كان جهادا سلبيا ، دليلنا عليه أن كثيرا من نابهى الكتاب والفلاسفة قد خصوها فيما كتبوا ببحوث واشارات عبرت عن أن فى جو المجتمع مشكلة هى مشكلة المرأة ، ومسألة معقدة هى مسألة الشطر الآخر من الجمعية البشرية .

ومن أعجب العجب أن « جان جاك روسو » ، على كثرة ما أشاد فى كتابيه « العقد الاجتماعى » و « أميل » الذى كتبه فى أصول التربية ، واستمساكه فيهما بنظرية أن الحرية حق طبيعى للانسان ، لم يذكر أن للمرأة حقا يقال له « الحق السياسى » . وجاراه فى ذلك بقية الكتاب الذين نحوا نحوه واتبعوا مذهبه . ذلك فى حين أن مذهب هؤلاء جميعا هو أن الحق السياسى حق طبيعى لا يسقط عن الانسان ولا يسلب منه حتى ولو تعاقد هو على حرمان نفسه منه ، بل قالوا أن التصويت حق عام لكل أفراد الجمعية ، وانه جزء متمم للحرية فلا يسلب ولا يتنازل عنه أو يحرم منه فرد ما من الأفراد . ذلك بأن الحرية شىء طبيعى ، وكذلك متعلقاتها وتوابعها .

أليس عجيبا أن أولئك الذين يقولون بتلك الحرية الواسعة ويقدسونها ، وينزلونها هذه المنزلة ، التى لا شك فى أنها صحيحة من كل وجه ، هم بأنفسهم الذين يمضون فى بحوثهم قانعين بأن يظل نصف الراشدين من مجموع الأمة عطلا من هذه الحقوق ، وأن يحرمهن النصف الآخر من التمتع بها ، فيطغى على حقوقهن فيها ، فلا يجعل لهن نصيبا من الاشراف على التشريعات التى تتعلق بأموالهن الشخصية، بل هى قد تنصب على كل أقدارهن فى هذه الحياة الانسانية؟

لقد كتب « روسو » عن المرأة وفصل الفوارق التى تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتاب القرن الثامن عشر الى ذلك الدرك الذى انحدر فيه « روسو » اذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجــل » . غير أنه عقب على ذلك بقوله :

« ينبغى أن يكون تعليمهن متصلا بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة ، وموضعا لحبه واحترامه ، ولتربى أولاده صغارا ، وتعنى بهم كبارا ، ولتبذل لهم النصح ، وتنفحهم بالعطف حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة . كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات ، يجب أن تتعلم المرأة من الصغر » .

بل ان « روسو » قد ذهب فى تقييد المرأة الى أبعد من ذلك . ذهب الى وجوب تقييدها دينيا ، فلم يجعل لها حق اختيار العقيدة التى تتصل من طريقها ببارئها، وقضى بوجوب أن لا يكون لها دين غير دين زوجها ، فهى مقيدة به محصورة فى حدوده . شأنه فى ذلك شأن « فلوطرخوس » فى العصر الرومانى ، وقد قضى كلاهما بأن على المرأة أيضا أن تعمل على غرس بزور دينها الذى هو دين زوجها ، فى عقل بناتها ، والا فانها تكون قد قصرت فى أداء واجب من أقــدس الواجبات . قال:

« حتى ولو كان ذلك الدين زورا محضا ، فان طواعية المرأة وبناتها ، وخضوعهن لذلك الشرع الطبيعى ، تكون عند الله وسيلة لغفران الخطيئات . ومن أجل أن النساء غير قادرات على أن يحكمن على الأشياء حكما ذاتيا ، فعليهن أن يخضعن لأحكام آبائهن وأزواجهن خضوعهن لحكم الكنيسة » .

لم يشذ عن هذه الطريقة التى اتبعها كل كتاب الثورة الفرنسية غير الفيلسوف « كوندورسيه » ، فقد ظهر فى بعض كتابات ظهرت له سنة ١٧٨٧ ، وتكاد تكون من منسيات ما كتب ، الى القول بأنه من المستحيل أن تستقر حقوق الانسان على قاعدة ثابتة ، ما لم يعترف بهذه الحقوق للمرأة ؛ وان كل الأسباب التى أدت الى الاعتقاد بأن لكل رجل الحق فى أن يكون له صوت مسموع فى حكم بلاده ، هى الأسباب التى تحملنا على اضفاء هذه الحقوق على النساء . قال :

« وعلى الأقل للواتى هن أرامل أو غير متزوجات » .

ولو لم يقيد « كوندوسيه » رأيه بذلك القيد الذى هو أثر من آثار الفكرة السائدة فى عصره ، اذا لكان أول رائد دافع عن حقوق المرأة فى العصر الحديث .

ولاريب فىأن موقف كتاب فرنسا من المرأة فىذلك العصر كان فذا غريبا ، اذا تذكرنا « ماريا تريزا » والملكة «كاترين» فى روسيا ، والمكانة العليا التى شغلتها كل منهما فى سياسة

بلادها خاصة وسياسة أوربا عامة . أضف الى ذلك المنزلة السامية التى احتلتها نساء موهــوبات فى الاجتماع والأدب والبحوث العقلية وفى الحياة السياسية ، منذ انقضاء عصر لويس الرابع عشر . ناهيك بما كان للمرأة من موضع فى الهاب روح الثورة فى فرنسا ، وما كان لها من تضحية فيها . وأية تضحية أعظم وأنبــل من تضحية مدام « رولان » و « شارلوت كورداى » وأولاهما من الموهوبات فى السياسة والأدب ، والثانية من الفدائيات . كانت الأولى من أعضاء حزب « الجيروند » المبرزين فيه ، وكانت الثانية من المضحيات اللواتى تذكرهن فرنسا الى جانب « جان دارك » ، وقد سقطتا على المقصلة ، مع رجال من أبرز رجال العصر .

ناهيك بما عليه كثير من المؤرخين الذين يعتقــدون أنه ما من كاتب استطاع أن يزن حوادث ذلك العصر بميزان أدق أو عقلية أرحب أو أفق أوسع من مدام « ده ستايل » . كذلك نعلم أن انســانا ما من الذين عاصروا الثورة ، لم يستطيع أن يلهب بمواقفه نيران الحقد والغضب استمساكا بوجهة من النظر السياسى ، فكان أعنف وأصبر على مكاره ذلك الموقف النكد من الملكة « مارى انطوانيت » ، وهى بشهادة الجميع من أكثر اللواتى سقطن على المقصلة استنارة فكر واستقامة رأى وثبات جنان .

قيل ان نابليون قابل ذات يوم أرملة « كوندورسية » وكانت من زعيمات الثورة فخاطبها محتدا وفى نبراته نغمة الآمر الذى لا ينتظر ممن يخاطب جوابا : مدام — انى لا أحب أن تتمحك المرأة فى السياسة — فأجابته على الفور : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعى فى بلد تحتز فيه رءوس النســاء ، أن يكون لهن الحق فى أن يســألن عن السبب فى ذلك !

ولا يجدر بنا أن نغفل فى هذا المقام عن ذكر ما كان للمرأة من أثر فى عصر النهضة فى أوربا . ولنضرب لذلك مثلا بما كان لتعليمهن من أثر فى حياة ذلك العصر .

وأول من نذكــر منهن ، بل أول من تتخــذ منهن مثلا يحتذى وقدوة يتأسى بها « كاترينا سفورزا » (١٤٦٢ — ١٥٠٩) فقد نشئت بعناية جــدتها الدوقة « بيانكا ماريا فسكونتى » . وكانت « بيانكا » من مشهورات أهل زمانها . ففى كل المعارك التى اشتبك فيها زوجها «فرنشسكو سفورزا» كانت مساعده الأول ونصيحه الأمين ، بل كانت فى بعض الأحايين قائدا مقداما مرنا ، فقادت الجيوش فى حومة الوغى وانحدرت بهم الى المعامع تناضل نضال النمرات . وكانت الى جانب هذا معبودة الجماهير لطهارة ذيلها وعفتها وحدبها على المظلومين والضعفاء ، وحنوها على الذين أخنى عليهم

الظلم ، وفعل بهم الاستبداد . كانت حمامة السلام ورسول الشفقة ويد الرحمة ، كلما استعرت نيران البغضاء واستيقظت روح العداء ، وفشت الأخطاء وعمت التعاسة . وبهذه الصفات علمت « كاترينا سفورزا » الحكم كيف يكون .

تلقت « كاترينا » من التعليم قسطا وافرا ، على النهج الذى اتبع فى ذلك العصر . وكانت التقاليد القديمة قد أخذت تنهار قبيل عصرها ، وتحل محلها تقاليد جديدة . فان نساء العصر الأول — أى عصر ما قبيل النهضة — كن محجوبات عن الاشتراك فى معضلات الحياة العامة ، والأخذ بقسط فى معالجة مشاكل العصر ، على كثرة ما كان فيه من مشكلات . فكان من حظ « كاترينا » أن يقضى قبل عصرها على هذا التقليد ، فيأخذ النساء بضلع وافر من الاشتغال بشئون السياسة والحرب ، وتدبير أمور الدويلات والاحتكام فى نزر غير يسير من الظروف التى عدلت وجه التاريخ الحديث .

بلغت العناية بأمر الثقافة النسوية فى عصر « كاترينا سفورزا » أعظم مبالغها . فان سيدات ذلك العصر ، على ما يقول ثقاة المؤرخين ، قد تلقين من العلم ومن أساليب التربية والتنشئة ما قد يندر أن يتهيأ لمثيلاتهن من بنات عصرنا هذا . فقد برزن فى الآداب القديمة وفى اللغتين اليونانية واللاتينية ، قراءة وكتابة وتفقها ، كما أعطين قسطا

وافيا من العلم بآداب عصرهن ، فى بلادهن وفى غيرها من البلاد ، وتثقفن فى الفن والعلم والموسيقى والرقص وركوب الخيل والألعاب الرياضية .

ومن مشهورات ذلك العصر « سيسيليا جـونزاجا » و « ابولينا سفورزا » عمة كاترينا سفورزا ، وبعد ذلك بسنين قلائل اشتهرت « ايزابلا دسـطه » و « اليزابتـا جونزاجا » ، وكل منهن مثال يحتذى فى الثقافة الواسعة والقدرة الشاملة والعبقرية الكاملة . فقد نعلم ان « ابولينا سفورزا » وكانت فى الثانية عشرة من عمرها ، قد ألقت خطبة من تأليفها باللغة اللاتينية ، ترحيبا بالبابا « بيوس الثانى » عندما حل ضيفا على أبيها . وفوق هذا أن « سيسيليا جونزاجا » كانت تكتب اللغتين ، اليونانيـة واللاتينية ، وتقرؤهما وهى فى الثامنة .

ونقل الينا أن « كاترينا سفورزا » قد أنشدت أبياتا من الشعر نظمتها باللاتينية ترحيبا بالكردينال « رياريو » عندما نزل ببلاط أبيها ، وهى فى العاشرة ، وعن « اليزابتا جونزاجا » انها كانت تغنى أشعار « فرجيل » موقعة بأناملها على القيثارة . وعن « ايزابلا داسطه » انها كانت تقرأ فرجيل وكيكرون وهى ما تزال يافعة ، وانها والت درس الآداب ، حتى بعد أن أصبحت مركيزة « مانتوا » . ولاشك فى أن

ذلك العصر ، عصر النهضة ، قد طبع بطابع الأدب العالى ، حتى لقد اعتقد أهل الطبقات العليا فيه ، أن تعلم الآداب القديمة من حاجات الحياة الأولى ، سواء للرجل أم للمرأة ، وأنه يزيد المرأة جمالا وفتنة . فلم يكن هنالك من فارق بين تربية الفتى وتربية الفتاة .

نقتصر على هذه الصورة التى نقلناها عن عصر النهضة فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، فنقضى بأن تعليم المرأة قد انحدر وفسد ، والرأى فيها اضمحل وأسف ، من بعد ذلك . وشاهدنا على ذلك « روسو » قبيل الثورة الفرنسية .

ولكننا اليوم عنـد رأى « كاستيلونى » الذى قال فى المرأة الكاملة :

« ان كل الايحاء انما يأتى من طريقها ، وانه من خصائص المرأة المثقفة أن تلهب فى الرجل نار الشجاعة ، وتبعث فى نفسه الأمل فى حومة الوغى ، والنهى فى قاعة المشورة ، والالهام فى عالم الفن ، والضرب فى رحاب المعرفة ، والسمو فى ميدان الفضيلة ، والتقوى فى مفاوز الدين » .

لقد قام فى أثناء الثورة الفرنسية بعض الذين حاولوا أن ينادوا بحقوق المرأة السياسية . ومنهم رجال آمنوا بأن انكار ذلك الحق على المرأة ، فيه منافاة للعدل وانتهاك للفكرة

الأساسية فى الحرية ، وأنها ملك مشاع لأبناء آدم وحواء ، وانها حق أبدى أزلى لا يسلب ولا يلغى ، بل انه حق ملازم للحياة الانسانية نفسها ، وان الاعتداء عليه ، مساو تماما للاعتداء على الحياة .

ولكن بالرغم من كل هذا كان نصيب كل حركة فكرية اتجهت هذا الاتجاه ، القمع السريع والكبت العاجل بشدة وعنف . ومثال ذلك : أن حكومة الثورة قد حلت جميع الهيئات التى أقامها النساء . فكل النوادى والجمعيات والهيئات السياسية التى أسسها النساء فى فرنسا قد حلت وحظر بقاؤها ، وحرم النساء شهود اجتماع الهيئة الثورية ، حتى لقد هددهن « شوفيت » أحد رجال الثورة ، بأن تدخلهن فى السياسة ، تجاوز لحقوق جنسهن ، واعتـداء على الشرع الطبيعى . هنا نستطيع أن نقارن بين حال المرأة ومركزها الاجتماعى فى طبقات المجتمع العليا فى عصر النهضة الأوروبيـة ، وحالها فى عصر الثـورة الفرنسية ، لنحكم أيهما كان عصر النور والعرفان .

— ٤ —

نشرت « مارى وولستونكرافت » الكاتبة الانجليزية كتابها « تأييد حقوق النساء فى انجلترا » وقصدت به أن يكون ردا على مذهب روسو ؛ فكان أول حافز جدى حمل المفكرين

على أن يتخذوا من هـــذه المعضلة موقفا ايجابيا ، أخرجهم من موقف السلب الذى لزموه ازاء حقوق المرأة ، وشاع فى الجو الأدبى نزعة الى بحثها والتفكير فيها . ولم يكن فى ذلك الكتاب عنصر يرفعـــه الى طبقة الكتب التى أحدثت الانقلابات الفكرية ، كما أن حياة مؤلفته قد أضافت الى كثير من نواحى الضعف فيه ، بالرغم من أنه خلو من نزعات العنف والثورة . فانها لم تعرض مثلا الى مهاجمة نظام الزواج ، وكان الكلام فى ذلك لزاما على كل من يبحث مشكلة المرأة وحقوقها الاجتماعية ، بل انها تكلمت فى نظام الزواج بروح الاحترام فقالت انه : « ينبوع كل الفضائل الاجتماعية » . وحثت المرأة على التزام الفضيلة ، واتباع ما توحى به شريعة الآداب ، ومراعاة مكارم الأخلاق ، على اعتبار أن جماع ذلك انما هو من واجبات المرأة الأولية . وبالرغم من أنها حثت على مشاركة المرأة الرجل فى جميع لباناته ووجوه تعليمه ومناحى ثقافته ، فانها كرهت أن يكون للمرأة اشتراك فى ملاعب الرياضة !! وهذا أمر عجب ، ولا تفسير له عندى الا التأثر بروح العصر وميوله ، اذ يجعل الفكر متراوحا أبدا بين حدين لا اعتدال فيهما : فاما افراط ، واما تفريط . ذلك فى حين أن المرأة فى عصر النهضة الأوربية ، ونقصد بها المرأة من الطبقة العليا ، قـــد اشتركت فى صيد الوعول

والخنازير البرية وفى التمثيل المسرحى ، وكانت تتعرض فى أثناء الصيد لمخاطر يتعرض لها الرجال .

وانك لتعجب كيف يحدث فى الاجتماع الانسانى ، مثل هذه الانتكاسات العجيبة .

أنفت مثلا أن يكون نساء انجلترا محمولات بمقتضى بيئتهن وتربيتهن على أن ينظرن الى الرجال نظرة الاعتقاد بأنهم عائلوهن وموجهوهن فى الحياة ، وكفلاؤهن فى هذه الدنيا . والى الزواج على أنه الغاية الأخيرة من الحياة ، وغضبت أن يحال دون المرأة والدرس العميق الذى يوسع من أفق العقل ، ادعاء بأن ذلك ليس من لبانات المرأة ولا من حقوقها ، وحملت على مذهب القائلين بأن من مفاتن المرأة أن تقتصر تربيتها على تنمية الحساسية فى شعورها ، وتغذية روح التواكل فى نفسيتها ، فتظل طفلة فى مواهبها ، وان اكتمل نماؤها البدنى ، حتى لا تثور على الرجل ، ما دامت هى تشعر بالحاجة الى من يكفلها فى الحياة .

هذه الوجهة من النظر فى حقوق المرأة وتربيتها وتكوينها عقليا واجتماعيا ، لم ترض مسز « وولستونكرافت » لأنها فاسدة من أساسها ، فوق أنها مضرة بالجنسين ، المرأة والرجل ، على السواء . فاذا لم تترب المرأة تربية تؤهلها أن تكون شريكة للرجل فى حياته العقلية ، فانها ولا شك تكون عقبة

تسد على الرجل سبيل الرقى من ناحية العقل ، ومن ناحية الفضيلة . ومن الأشياء التى يتعذر علينا أن نمر بها سادرين ، أن يعهد فى تنشئة الشباب ، وهم بعد فى أكثر سنى عمرهم قابلية للتعليم والتلقى ، الى عقول صدت عن العلم ، وكفت عن التهذيب وأن يلقى بهم عند رجولتهم فى أحضان شابات ليس لهن من عطف على شىء من الأمانى التى تجول فى صدورهم ، أو احاطة بالدراسات التى يعكفون عليها ، أو تقديس للأعمال التى تنتظرهم فى الحياة .

ثم تقول :

« ان الاستخفاف والبله والغرور وكبت الأحاسيس والوهم والغفلة ، هى الأشياء التى تخرج بها المرأة فى أسلوب التعليم الذى تتلقاه . ولا ريبة فى أن مثل هذه المرأة جديرة بأن تلقى على الحياة الزوجية ظلالا من الحياة قاتمة مظلمة ، تثقل حتما على حياة الرجل بعد أن تذهب جدة الزواج ، ويخلق ثوب الفتنة الذى يغشى على الطور الأول من التخالط الزوجى . أما التعليم الكامل فانه بالمرأة الفقيرة ، وبالمرأة التى تقف فى وجهها صفات خلقية تردها عانسا ، أخلق ولها أفيد . ذلك بأنها تكون مضطرة أن تخوض معركة هذه الحياة وحيدة بغير معين أو كفيل . أما اذا تركت الى الحياة وحظها من التعليم ذلك القسط الدنىء الذى يخلفها بغير

سلاح تواجه به حاجات العيش ، فان حياتهـا تكون من المصائب العظمى والبلايا الكبرى » .

ولقد عمدت الى مؤلفين من أهل عصرها نقلت عنهم أقوالا امتدحوا بها ضعف المرأة جسمانيا وعقليا ، عادين ذلك من مفاتنها ، حاسبين ذلك لها ، لا عليها . بل ان بعضهم قد ذهب الى القول بوجوب ان تبتعد المرأة عن كل نشاط جسمى ، أو مرانة عقلية ، وأن على المرأة أن تمتنع عن كل ما يهيء لها روحا مرحة ، أو يزودها بجسم صحيح البنية متين التركيب ، وأن تتنكب سبيل الدرس العقلى والاستقلال فى الرأى أو الاستمساك به ، حتى لا يضعف ذلك من فتنتها فى عين الرجل . بل قيل ان المرأة لا ينبغى لها أن تمعن فى التدين والتقوى ، فربما خانها الحظ ، وهى مأخوذة بتقواها ، ممعنة فى تأملاتها القدسية ، فتسمو الى مدارج أعلى من مدارج الرجـل ، وأعمق من مفهومه ، وبذلك تنزل عن مكانتها فى عينه .

ولقد ثارت هذه الكاتبة على كل هذا وأمثاله ثورة جد ، قائلة ان الفضائل ليست وقفا على جنس دون جنس ، وان ما يصلح منها لأحدهما ، ولا شك يصلح للآخر . ولقـد تساءلت لماذا يكون الجبن رذيلة فى الرجل ، فضيلة فى المرأة ؟ وخلصت من ذلك الى القول بأنه استنادا الى الحقوق الطبيعية ،

يكون للمرأة حق التمتع بالقوة السياسية ، وان حقها فى ذلك أمر لا منازع فيه ولا مانع منه ، وان تمتع المرأة بحقوقها السياسة ، باعتبار أنه وسيلة الرقى ، هو بذاته عامل من أمضى العوامل فى تربيـــة روح الجماعة ، وحافز من أكبر الحوافز على تهذيب الرأى العام وتنمية الروح القومى •

وكان لها فى المرأة من حيث العمل رأى طريف ، فقالت انه من الظلم والبغى أن تمنع المرأة ، بالقانون طورا ، وبالشرائع طورا آخر ، عن العمل فى سبيل الحصول على ما يقيتها ، وقد كفتها الطبيعة عن التزود بسلاح فعال فى التناحر على البقاء • وهى تظن أن مهنة الطب خير ما يوافق مزاج المرأة ، وأن القوانين التى تحول بين المرأة والعمل ان عطلت ، فانها سوف تنزع بطبعها الى ضروب من العمـــل توافق مزاجها ومواهبها •

على هذا يكون للمرأة حق التعلم على نفس الطريقـــة والمنهج الذى يتعلم به الرجل • ونعت على عادات عصرها أن كانت السبب فى أن يعيش آلاف من النسـاء والفتيات عيش الفراغ والخمـــول ، وعزت الضعف النسوى فى عصرها الى طريقة التنشئة والى ما أتبع من أصول التربية وحبس الفتيات فى داخل الدور والحجرات من غير رياضة أو مرانة جسدية ،

حتى خملت فيهن قوة العضل ، وأصابهن سوء الهضم ، وما اليه من صنوف العلل وضروب الآفات .

— ٥ —

بالرغم فى أن هذا المتجه فى البحث قديم فى عصرنا هذا ، فانه أثار فى عصر هذه الكاتبة كثيرا من الامتعاض والتقزز ، فى أوساط المحافظين من أهل الأمم الغربية .

غير أن أثره قد ظهر وشيكا فى تفكير كثير من عظماء الرجال ، وكانت الناحيـــة السياسية من حقوق المرأة ، أبين من غيرها أثرا فى تفكيرهم . فقد أشار السياسى المعروف تشارلز فوكس اليها فى خطبة ألقاها فى مايو من سنة ١٧٩٧ ، وكان رأيه أنه — « فيما عدا الشركات ، وهى ما يؤثر حق التصويت بشأنها على الملك » — يرى أنه من المرغوب فيه أن يعطى حق الانتخاب للنساء ، ولا يمنع ذلك حتى فى المسائل التى تتصل بنظريات أو مشروعات يتطلب النظر فيها دقة خاصة . ومن رأيه أن للنساء مصالح يجب أن تصان ، وهى مصالح عزيزة عليهن ، ولا تقل شـــأنا لديهن عن مصالح الرجال .

قال : « لا ينكر أحد أن نساء الطبقة العليا هن أحق ، من حيث الكفاءة والمواهب ، بمباشرة حق التصـــويت فى الانتخاب ، من أولئك الرجال الجهلاء الذين هم من الطبقة

الدنيا فى المجتمع ، وهم الذين يحاول القائلون بحق التصويت العام ، اضفاء « ذلك الشرف عليهم » . وخلص من ذلك الى البحث فى كيفية الخلاص من ذلك الشذوذ الغريب : فانه اذا كانت الغاية من كل نظام سياسى رشيد ، هو الحصول على مصوتين مستقلين فى الرأى ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه الحقيقة وبين شرائع المجتمع ، وربما شرائع الطبيعة أيضا ، وهى التى جعلت المرأة عالة على الرجل ؟.

ولقد نسى ذلك السياسى الكبير أن المرأة لن تظل الى الأبد عالة على الرجل . فان تطـور النظامات الاجتماعية ، وخروج الانسان من عالم الظلمات الى نور المدنية ، كفيل بأن يجعل للمرأة فى النظام المدنى منزلة مستقلة تماما . غير أن أفق الحياة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وضعف النظم الاقتصادية وضيق نطاقها ، والعادات والتقاليد الموروثة منذ أقدم العصور ، تجعل لذلك الرجل الفذ بعض الحق فى تساؤله هذا .

وكان الفيلسوف « جرمى بنتام » ممن تناولوا موضوع المرأة فى عصره ، ولكن أقواله واشاراته لم تتجاوز حد أنها فكرات عابرة غير مستقرة . وكان من رأيه أن من الظلم والتنطع أن يحرم النساء حق التصويت فى انجلترا ، فى حين أنهن يشغلن فى الدول الأخرى مراكز ممتازة فى عالمى السياسة

والاجتماع ، وقد حصل بعضهن على قدر من السلطة السياسية فى بعض دول القارة بلغن به أرفع الذرى • ولكنه الى جانب هذا كان متشائما ، فلم يتماد فى بحث هذا الموضوع الخطير ، لأن القوى المتناصرة على كبته كانت كبيرة ، وسيل الفكر المتجه الى قمعه كان جارفا ، فتنكب الكلام فيه ، ظنا بأنه الجهد المضيع ، والعمل الفائل •

— ٦ —

نشر « بايلى » كتابه « التمثيل السياسى » سنة ١٨٣٥ ، وهو من الكتب التى أحدثت فى عصره انقلابا من أخطر الانقلابات الفكرية فى السياسة ، وقد أيد فيه نظرية حق المرأة فى التصويت العام •

كان من رأيه أن النظام التمثيلى يقوم على مبدأين أساسيين : الأول : أن الغاية من الحكومة العمل على اسعاد الجمعية ، نساء ورجالا ، لأن كلا الجنسين له قابلية التأثر باللذة والألم • والثانى : أن مباشرة الحقوق السياسية ينبغى أن تكون لخير جميع الفئات التى هى تحت كنفها ، ما دامت هذه الفئات خاضعة لحكمها أو لحكم أشخاص تتفق مصالحهم ومصالح أولئك الأشخاص •

من هذا يتضح أن القول بحرمان المرأة من مباشرة الحقوق السياسية ، انما يستند فى رأى « بايلى » الى أحد قولين :

الأول : أن حقوقهن تتفق وحقوق الرجال ، وأنهن محميات بما للرجال من حق التصويت ؛ والثانى : أن المرأة عاجزة عن تطبيق حقها السياسى واستعماله بحيث يعود عليها وعلى الجمعية بالخير . وبذا تكون المفاسد التى تنشأ عن اختلاف المرافق بين الجنسين ، انما يضاعف فى التعويض عنها ، ما فى الرجل من التبصر والحكمة التى تغمر بفضله وظيفة الحكم .

أما القول الأول فقد رد بحقائق تاريخية ؛ وذلك بأن من الحقائق الثابتة التى لم يختلف فيها مؤرخان ، أن الشطر الأقوى من شطرى الجمعية البشرية ، قد استعمل « حق الأقوى » دائما وفى مختلف الظروف ومتباين الحالات ، مستبدا بالشطر الأضعف ؛ وانه فى جميع العلاقات التى قامت بين الرجل والمرأة ، كما هى الحال فى كثير غيرها من العلاقات ، قد أسىء استعمال القوة ، ما دامت هى قوة مطلقة القيد غير مسئولة ، وان ذلك كان عاما ومطردا فى كل الظروف . وقيل : لقد بذل كثير من الجهد فى سبيل تحسين حالة المرأة ، — « ولكن ما تزال سلطة الرجل على المرأة يساء استعمالها ، وانه يشك كل الشك فى امكان اقامة حدود العدل والانصاف فى علاقة الرجل بالمرأة ، قبل أن يأخذ كل منهم حقه المقسوط من الاشراف على سن الشرائع » — ولا شك فى أن كثيرا من التشريعات تتناول مسائل تتفق فيها مصلحة الجنسين ، —

«غير انه فيما يختص بالفروق الواقعية، وهى التى تتناول الصلات الايجابية التى وزعتها الطبيعة على الجنسين ، وهى صلات لا محالة باقية أبدا ، فان مرافق ولبانات متباينة لا بد من أن تنشأ بينهما ، وينبغى أن يسن عدد عديد من الشرائع تنظم حقوق كل من الجنسين وتحدد واجباته ازاء ذلك . فاذا ترك سن هذه الشرائع ، وهى شرائع تتصل بفئتين متناظرتين ، لشهوة فئة منهما ، فانا ولا شك نعرف النتيجة » .

وأما القول الثانى فى حرمان المرأة : فهو القائم على رأى « بايلى » فى عجز المرأة ، وأنه فى كل الجمعيات الانسانية القائمة ، نرى أن جنس الأنثى هو بوجه عام أدنأ ذكاء من جنس الذكر .

ولقد نسى « بايلى » حقيقة من أظهر الحقائق وأدمغها حجة . نسى أن عقلية المرأة اذا كانت من الطبقات العليا فى الجمعية ، ترجح عقلية الرجل اذا كان من أهل الطبقات السفلى . وأن المرأة التى تحصل على خمسمائة جنيه دخلا سنويا ، هى ولا ريبة أكثر اتصالا بالدنيا ومعرفة بأنبائها من رجل دخله خمسون جنيه ، ولكنها تكون أقل من رجل دخله خمسمائة . فاذا صح هذا الرأى ، كان الصواب والحجة السليمة ، أن لا ننبذ النساء ونحرمهن حق أفراد الجمعية المشتركة ، بل نعمل على أن تكون مؤهلاتهن الدنيوية أوسع

وأرحب . وقـد نشك أيضا فى ضرورة ما تتطلب فراسة الانتقاء من الكفايات العليا . فمن ناحية ذلك الضرب من الذكاء الذى تنشده دائما عندما نريد الحكم على حقيقة الأشخاص الذين يصلحون للخدمة العامة حكما صحيحا ، نجد أن المرأة فى بعض الاعتبارات ، أمهر من الرجل ، اذا كانا من طبقة اجتماعية واحدة . واللبـاقة النسوية فى استشفاف بعض الصفات الخلقية فى الأفراد ، أمر مجمع عليه . ومما لاشك فيه أن مثل هذا المعاون الأمين ، يكون ذا شأن عظيم فى انتقاء ممثلى الأمة ... ولو أمكن وضع طريقة مثلى لأخذ الأصوات، مع تخليص نظام أخذها من تلك المفاسد الممضة ، والمناظر المؤلمة التى تجعلها أقرب الى الفوضى والخشونة ، لكان مباشرة حق الانتخاب نظاما يتفق وتنميـة أرق العواطف وأثمن العادات .

ومن رأى « بايلى » أنه اذا كان واضعوا قانون الاصلاح فى انجلترا (١٨٣٢) قد جعلوا المرأة فى مرتبة واحدة مع الرجل من حيث الحقوق العامة ، اذن لقضوا على شذوذ عجيب ، بل على ظلم فادح ، من غير أن يضطروا الى تبديل كبير فى دوائر الانتخاب .

قال فى كتابه « التمثيل السياسى » : كان ينبغى على الأقل، أن يعطى حق التصويت للأرامل اللائى لهن بيوتا خاصة ،

أو يعشن بمفردهن ، أو اللواتى لديهن نصابا ماليا معقولا ، وأنه لمن المتعذر أن تقع على شيء من النهى أو الحكمة فى أن يصد أولئكن عن هذه الميزة ويحرمن منها ، اللهم الا أن يكون قد روعى فى ذلك تلك الفوضى الغامرة التى ترافق طريقة اعطاء الأصوات ، وماهى غير بقية نظام فاسد درجنا عليه .

وما يقوم من حجة يحتج بها الذين يخالفون « بايلى » فى الرأى الا القول بأنه فى الوقت الذى وضع فيه قانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ ، لم تقم أية طبقة من النساء بالمطالبة بهذا الحق ، وان أكثر النساء اذ ذاك كن زاهدات فيه . أما فى أواخر القرن التاسع عشر ، فان أسبابا كثيرة قد غيرت الموقف تغييرا كليا .

الفصل الثانى

الصناعات المنزلية ـ القيود التى فرضت على عمل المرأة ـ منافسة النساء للرجال فى المعامل والمصانع ـ المرأة فى سوق العمل ـ مخازن التجارة الكبيرة ـ المرأة فى مهنة الطب ـ تعليم المرأة تعليما عاليا ـ الحياة فى صورة أكثر تحقيقا للصحة والحياة الطيبة ـ التغير الذى أصاب خلق المرأة .

ـ ١ ـ

كان القضاء على بضعة صناعات منزلية ، اثر ظهور بعض اختراعات خطيرة ، من أعظم الانقلابات الداوية التى أصابت انجلترا فى خلال القرن التاسع عشر . كانت تلك الصناعات وقفا على بيوت ريفية هائلة العدد منتشرة فى عرض المزارع وطولها . فلما اكتسحتها تلك الاختراعات وقضت عليها ، نشأ على أنقاضها مصانع فخمة واسعة ، تستخدم عشرات الألوف من العاملات . ولقد كان لهذا الانقلاب آثار هامة يمكن تتبعها فى كل مرفق من مرافق الحيـاة فى انجلترا ، اجتماعيا وسياسيا . ولكن من المحقق الثابت أن فعلها كان أبين فى المرأة من حيث التأثير فى حياتها وعاداتها ومصالحها ، منه فى أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع . واذا نظرنا فى هذا الانقلاب من ناحية بعض الاعتبارات الخاصة ، رأينا أنه قد

أنتج نتائج بالغة منتهى السوء . فمن ناحية الأخلاق كانت الصناعات المنزلية ذات أثر فى الاحتفاظ بالناحية الطيبة منها ، اذ كانت حياة الأسرة غير مدخولة بعنصر جديد يفكك عراها ، كما كانت من أشد العوامل فعلا فى الاحتفاظ بطبقة الفلاحين والاجراء مكفية الحاجة ، وهى طبقة من أفيد طبقات المجتمع ، وعنصر من أقوى عناصره ؛ بل ان شئت فقل انها صلب المجتمع وفقاره المقوم لحقيقته وصورته . فان آلافا مؤلفة من المزارع الصغيرة فى انجلترا ، كانت ولا شك تصبح عرضة للبيع بثمن بخس والاندماج فى المزارع الكبيرة ، عند ما تنزل قيمة انتاجها الزراعى بفعل ظروف خارجة عن ارادة الزراع ، لو لم يؤيدها فى مثل هذه المحنة الناسج والغزال . ولا شك فى أنه من أروع الحقائق الظاهرة فى الحياة الاقتصادية أن لا يعتمد الناس فى معيشتهم على مصدر واحد من مصادر الثروة ، وانه من الحكمة أن يكون من وراء ذلك المصدر مصدر آخر تابع له ، يأخذ بيدهم اذا أصابهم الكساد أو نزلت بهم قلة . فكانت المصانع المنزلية من حيث ذلك ذات قيمة كبيرة ، وكان من الممكن أن يفزع اليها كلما دقت ساعة الحاجة وحزب الأمر . وكانت هذه المصانع فى الواقع وسيلة لاستغلال فراغ أشهر الشتاء ، عندما تتطلب المزارع قليلا من العناية والوقت .

ان عمل المرأة يتراوح بين الشـغل والفـراغ تراوحا شديدا ، لا نظير له فى عمل الرجل . فان عمل امرأة متزوجة من طبقة العمال ينحصر فى العناية بمنزلها وأسرتها ، ولكن كمية العمل المطلوب منها أداؤه تلقاء ذلك ، تختلف اختلافا كبيرا بمقتضى الحالات . فهو يتوقف الى حد بعيد على عدد أبنائها ، وعلى سنهم وصحتهم ، والدرجة التى وصلوا اليها فى التعليم ، وعملهم فى خارج المنزل ؛ والى وجود بنـات لها وسنهن وقدرتهن على مسـاعدتها أو احتياجهن اليها . فحياتها فى سنة ما قد تكون مثقلة بالعمل ، وفى أخرى مخللة بالفراغ . وفى مثل هذه الظروف تعمل الابرة والوشيعة [١] والنول اليدوى ، فتصبح أشياء بالغة القيمة .

كل هذه الصناعات وأترابها مما له صلة بها ، قد عطبت وبادت . ناهيك بأن الصناعات المنزلية لا يتسنى لها أن تنافس المصنوعات التى تخرجها الآلات ، وهى أرخص ثمنا وأتقن صناعة . وكذلك هى الحال فى عالم الانتاج الفنى . فان الآلات قد قاربت من حيث القدرة على الجمال الفنى صناعة اليـد ، وقـد مضت فى ذلك شوطا قـد يؤدى بها الى التفوق عليها .

انظر الى صناعة « الدانتلا » مثلا فان الآلات قد برعت

(١) أكرة النسج

فى صناعتها براعة أدت الى القضاء عليها قضاء مبرما بين الأيدى العاملة وكانت من أعظم الصناعات اليدوية فى بلجيكا قبل نشوء تلك الآلات وقبل اقامة معاملها العظيمة فى تلك البلاد . ذلك بأن المنافسة بين الآلة والانسان ، قد قضت على الانسان ، وأقامت صرح الآلة . وكذلك الحال فى الملابس التى كانت تغزلها وتنسجها الأسر فى داخل المنازل . فان رخص المنسوجات الآلية ، قد قضى تقريبا على صناعة الثياب المنزلية .

قد يتفق أن يكون مجال الاستخدام والعمل قد اتسع بوجود الآلة ، ولكن مما لا شك فيه أن مقدار العمل المتقطع ، أى الذى تتخلله فترات فراغ وتعطل ، والعمل الناشيء اتفاقا ، أى الذى تتطلبه ظروف طارئة ، قد يحتمل أن تكون فرصه قد ندرت أو هى كادت تزول تماما . وعلى الحقيقة نجد عند النظر فى طبقة أرفع بعض الشيء من طبقة العمال والصناع ، ان الصحافة وصناعة الأدب والتأليف مثلا قد هيأت عملا للكثيرين ، وان هذه الأعمال ، وان لم تتخذ صناعة دائمة فى بعض الأحيان ، فانها بطبيعتها قد تشحذ بعض المواهب حتى يصبح الاشتغال بها ملكة وفنا دائما ، وبذلك تضيف الى الحياة قسطا من المرح والفائدة ، قد نلفى ان الحياة بغيره ذميمة مرذولة . ذلك على العكس مما تقع عليه فى عالم الصناعة .

فان الصناعة قد تركزت وتبلرت فى مواضع خاصة لا توجد فى غيرها ، فانتقل بذلك عمل المرأة العاملة من البيت الى المصنع .

وكان من الضرورى أن يسن لهذه الصناعات الهائلة قوانين تتدخل فى شئونها فتنظمها وتحميها . ولم يكن هنالك من حاجة اليها عند ما كانت هذه الصناعات مقرها البيت ومصنعها جلسة هادئة الى جانب الموقد . وقد شعر كثير من المصلحين بأن هذه الشرائع المنظمة للصناعة ظلت فى الماضى وستظل فى المستقبل ، من أشكل ما ينصرف اليه السياسيون ورجال الدولة من المهام والواجبات . وهنالك الى جانب هذا شرائع تتفق ازاءها مصالح الرجال ومصالح النساء على السواء . وان قليلا جدا من المعضلات الاجتماعية ما يفوق معضلة الى أى حد يذهب القانون فى حماية المرأة من التأثر بدنيا وعقليا من جراء ارهاقها بالعمل ، من غير أن يحرمها القانون حق العمل ، ويحول بينها وبين مزاحمة الرجل فيه ؟ فاذا تنافس طائفتان من الناس تختلفان فى القوة البدنية ، كما تختلفان فى قيمة الأجر الذى يصيب كل منهما جزاء العمل، فلا شك فى أن مصالح متناظرة تنشأ بينهما . فاذا قام ممثلو ناحية منهما بوضع القوانين التى تنظم العمل، فمن الراجح جدا أن الناحية غير الممثلة تتأثر لحساب الناحية الأخرى . وذلك

ما حدث فى انجلترا وفى كثير غيرها من البلدان الصناعية . فان عمل المرأة تنظمه قوانين خاصة أشد وأمعن فى الحرج من القوانين التى تنظم عمل الرجل . فالمرأة ممنوعة من العمل الليلى ومن العمل فى باطن الأرض ومن العمل فى المصانع أسابيع معدودات بعد الوضع ، ومن الاشتراك فى جماعات العمل الفلاحى . وهن فوق ذلك ممنوعات من العمل أمام الآلات الخطرة . والساعات التى يعملن فيها محدودة فى كثير من المناطق بالقانون ، ومركزهن فى العمل مركز الفتيان الذين لم يرشدوا بعد .

غير أنه لا ينبغى لنا أن ننسى أن الحجج التى أقام عليها المشرعون هذه الفوارق ، هى من القوة بحيث لا يستطاع أن يناقش فيها أو يمارى فى صحتها . ومهما يكن من أمر المنازعة واختلاف الرأى فى الفروق التى تفصل بين الرجل والمرأة عند مقارنة الكفايات ، فلا يخامرنا الشك مثلا فى أن المرأة أقل من الرجل قوة جسمانية وقدرة على العمل . ومن عادة النساء ، وهى عادة تكاد تكون طبعا فيهن ، أنهن يحملن أنفسهن من العمل مايرهقهن ، ولهن فى ذلك ميزة على الرجل من حيث الانتاج ؛ ولكنها ميزة تقودهن الى الانتحار البطىء .

ويظهر أن النساء فى بعض الحالات أكثر تعرضا الى النتائج السيئة الناشئة عن الاشتغال ببعض فروع الصناعات ذوات

العلاقة المباشرة بالصحة . فمما يقال مثلا ، وقد يكون حقا ، أنهن أكثر استجابة للتسمم بالرصاص ، وفى سن أبكر ، من الرجال . غير أن حقيقة طبيعية لا مناص من تقريرها فى مثل هذا البحث ، وقد تفصل بين الرجل والمرأة فصلا تاما من حيث العمل: تلك حقيقة أن المرأة لا ينبغى أن تحسب أنها امرأة وحسب ، ولكن يجب أن يضاف اليها حقيقة الأمومة . فان التأثيرات القاتلة التى تؤثر فى الأم وفى الجنين، قبيل الوضع وبعيده ، من جراء العمل المرهق ، وانصراف الأم عن العناية بولدها فى الأسابيع الأولى من حياته ، هى من الحقائق التى لا منازع فيها .

ومهما يكن من أمر اختلاف الرأى بين الرجال والنساء ازاء ما يتطلب هذا الموقف من تشريعات على هذا النمط ، فان المسألة فى ذاتها من أعقد المسائل الاجتماعية وأكثرها تشعبا . ذلك فوق ما نلمس فيها من الدقة وما يتطلب علاجها من ترفق بها وبعد نظر فيها . ومن هنا حق للمرأة أن يكون لها صوت مسموع ورأى يوزن .

هنالك شكاوى رددت الفينة بعد الفينة ، كقولهن مثلا ان التشريعات التى نظمت العمل فى المصانع قد أخرجتهن من كثير من الأعمال التى كانت تدر عليهن رزقا ، وأنها أنقصت أجورهن ، وكانت بطبيعتها أقل من أجور الرجال ، وأنها

قالت بقسوة غاشمة من طائفـة كبيرة من النسـاء اللواتى يعملن فى صناعات مهملة قليلة الأجور ، ولكنها كانت تروج وتثمر فى بعض المواسم تبعا لرواج نماذج موسمية مثلا .

من البراهين التى أدلين بها : أن كل تقييد يتناول حدود عملهن بمنعهن عن العمل نفس الزمن الذى يعمل فيه الرجال ، وبنفس الكمية ، معناه احلال الرجال محلهن فى فرع ما من فروع الصناعات التى يتناولها ذلك التقييد .

أضف الى ذلك أن هذه القيود قد فرضت على النسـاء ، فى عصر اشتدت فيه حاجتهن ، أكثر من أى عصر آخر ، الى العمل للحصول على ما يقوم بأودهن ، وأنه فى ظل التنافس القائم فى عالم الانتاج الحديث ، قد تحدث نزعة العطف على المرأة ، اذا لم يسوغها الواقع ، نفس الأثر الذى تحدثه رغبة الرجال فى اقصاء النساء من حيز العمل المنتج ، فيقع عليهن بذلك من المضار ما تعجز الأجيال أن تصلح من أمره شيئا .

هناك فئة من المصلحين الاجتماعيين قالوا بوجوب حظر العمل فى المصانع على المرأة حظرا قاطعا . وآخرون أرادوا أن يطبقوا على المرأة قانون العمل الخاص بالفتيان الذين هم دون الثانية عشرة العاملين فى مخازن البيع ، فينتج عن ذلك ، كما اعتقد كثير من النساء العاملات فى القرن التاسع عشر ،

استبدال العاملات بالعمال فى كثير من الأعمال التى يعتمد فيها عليهن أكثر شيء .

— ٢ —

قلما اجتمع مجلس من مجالس التشريع فى أنحاء أوربا خلال القرن الماضى فلم ينظر فى تشريعات العمل ليفرض على العمل النسوى قيودا ترمى الى شلهن ودفعهن عن منافسة الرجال ، بما يسن من شرائع ولوائح تنظم العمل ، حتى يؤدى تنظيمه الى هـذه النتيجة . وأكبر مثـل على ذلك ما وقع فى انجلترا سنة ١٨٩٥ عندما أقر مجلس العموم قانون المصانع الذى أدخل المغاسل العمومية فى نطاق العمل الذى تنظمه القوانين ، فسن قيودا جديدة تناولت الزمن الاضافى الذى يحق للمرأة أن تعمل فيه تحت ظروف خاصة ، وشفعها بقيود أخرى تناولت عملهن فى المنازل بما ينتقص ذلك العمل انتقاصا ، وهيء وزير الداخلية بسلطات جديدة ، بحيث أصبح من حقه منعهن عن العمل فى أعمال قد يتراءى له أنها خطرة أو غير صحية .

ولاشك فى أن هذا التشريع وغيره من أمثاله ، ان هو الا ثمرة قانون الانتخاب الذى لا صوت للمرأة فيه ، بل أنه الجنى المباشر لتصويت الرجال واحتكارهم هذا الحق الطبيعى دونهن ، واستبدادهم بذلك الحق ، مضافا الى ذلك ضغط

هيئات العمال السياسى . وما قولك فى أن التفتيش فى المصانع قد ظل الى وقت قريب ، وفى أكثر أنحاء أوربا ، وقفا على الرجال دون النساء . وكان تعيين امرأتين للتفتيش فى المصانع سنة ١٨٩٣ فى انجلترا ، حادثا يروى فى المنتديات ويتندر به .

— ٣ —

فى المقدمة الفذة التى وضعها « تيرجو » الوزير الفرنسى المعروف سنة ١٧٧٦ للأمر العالى الذى حظر فيه نظام العرفاء [١] للمهن والصناع والتجار فى فرنسا ، فقرة نعى فيها تلك القيود المفروضة على الصناعات والتى — « تقصى عن العمل أحد شطرى الجمعية ، ذلك الشطر الذى هو لضعفه واستكانته ، أصبح كثير المطالب قليل الموارد ، وانه عما فرض عليه من تعاسة وذلة ، قد جنح الى الغواية والفجور ... » وقد يحدث مثل ذلك بحكم الحالات المحيطة بالصناعة الحديثة ، تلك الحالات التى نتجت من جراء ما سن من التشريعات المنظمة للعمل فى المصانع .

ولا ينبغى أن ننسى أن مصالح الرجال والنساء ان اتفقت وتلاءمت فى كثير من الأشياء ، فان هذه المصالح تختلف

---

(١) العريف النقيب دون الرئيس والجمع عرفاء وبابه ظرف اذا صار عريفا (مختار الصحاح) .

وتتباين ، بل وتتناقض تناقضا عظيما فى نواحى العمل الصناعى . ولذا فان الآلات ان كانت قد انزلت بالعمل النسوى أضرارا بالغة بأن قضت على الصناعات المنزلية ، فانها قد عوضتهن عن ذلك مزايا أخر أخصها أنها فتحت لهن أبوابا واسعة للعمل والكسب . كذلك هى قضت على ملكة القوة الجسمانية وأنقصت من شأنها وحطت من قيمتها ، كما أنزلت من قيمة المهارة الصناعية بما أنشأت من ضروب التخصص فى الصناعات وتقسيمها أبوابا ودرجات . ففى مستطاع الآلة أن تهيىء للبنات الضعيفات وغير ذوات المرانة الكافية ، فرصة القيام بأعباء من العمل كانت تتطلب فى الماضى رجالا أقويا محنكين . زد الى ذلك أنهن فى أكثر الحالات يعملن تلقاء أجور أقل من أجور الرجال . غير أن هنالك ولاشك استثناآت ، صناعة القطن من أظهرها وأينعها . ولكن مستوى أجورهن فى أكثر فروع الصناعة أقل من أجور الرجال بنسبة ظاهرة محسوسة . وحتى فى مخازن البيع ، وهى محال من غير الطبيعى ولا المعقول أن تتفاوت فيها الأجور ، نجد أن أجر العاملات ينقص بمقدار الثلث عن أجر العاملين .

ويرجع اختلاف الأجور الى أسباب متفرقة . ولا شك فى أن بعض هذه الأسباب يشير الى أن عمل الرجل ، كما يقضى العرف ويؤيده الواقع ، أفضل وأتقن وأكثر تواصلا من عمل

المرأة ، وان النساء أكثر عددا من الرجال ، وان مجال الاعمال التى يصح ان يستخدمن فيها أضيق نطاقا من مجال الأعمال التى يستخدم فيها الرجال . كما أن بعضا من هذه الأسباب يعود الى ذلك التقليد القديم ، تقليد الاعتقاد بضعة المرأة . وهو تقليد لم تقو عادات العصر الحديث ومتجهاته الفكرية والفعلية أن تقتلع أصوله ، ثم الى الاعتقاد بأن العاملات أقل خضوعا للنظام واتباعا لمقتضياته من العمال ؛ ولذا فهن أقل كفاءة فى سوق المساومة على الالتحاق بالأعمال من نظرائهن الذين يتمتعون بسمعة أنهم أخلد للنظام وأرعى لأصوله .

ليست هذه الأشياء هى كل العناصر التى تكون المشكلة . فان مستوى الحياة يؤثر تأثيرا جدا واضحا فى قيمة الأجور وتكاليف الحياة ومستواها عند العزب ، هى فى العادة أعلى من تكاليف العزبة ، اذا كانا من طبقة اجتماعية واحدة . والعامل المتزوج فى العادة عماد اسرته ، فى حين أن الأجر الذى تحصل عليه الزوجة العاملة ، فيه صفة الاضافة أى صفة أنه شىء يسد النقص الذى قد يقصر عنه كسب الزوج .

ولا ريبة فى أن هذه الأشياء من شأنها أن تؤثر فى قيمة الاجر النسبى الذى يخصص لكل من الجنسين . ولكن الحقيقة أن نزول مستوى أجور النساء عن أجور الرجال ، من شأنه أن يذكى المنافسة ويشعل لظاها ، ويزيد الرجال رغبة فى أن يقصوا المرأة عن مجال العمل ، فاذا لم يستطيعوا

ذلك ، تمنوا لو أنهم ردوها الى القصور والعجز . ومما لا شبهة فيه أن القيود التى تفرضها تشريعات المصانع ونظام اتحاد المهن على العمال ، من شأنها أن تكون موضع شكوى البعض منهم . غير أنها الى جانب هذا انما تعبر عن رغبات أكثريتهم الغالبة . ذلك بأن مثل هذه الرغبة قد تستغل استغلالا فعالا فى تعزيز تلك القيود والحرمانات التى تفرض على العمل النسوى .

— ٤ —

قيل بأن العمال عند ما دافعوا عن خطة فرض القيود وزيادتها على عمل العاملات ، لم يكونوا محفوزين الى ذلك ببواعث انسانية صرفة، بل كانوا واقعين تحت تأثير المنافسة المهنية . وليس ذلك بمستغرب . فانه ولاشك نتاج احساسات عادية تظهر آثارها فى كل الجماعات الكبيرة التى تنزع لأمر ما الى التنافس . وان قليلا من الناس من يدخلهم الشك فى حقيقة أن أصحاب مهنة الطب ، ما عارضوا فى قبول النساء عاملات فى هذه المهنة ، الا واقعين تحت تأثير هذه البواعث ، ولو بشكل جزئى على الأقل . وكذلك ترى أن نقابات المهن التى طالبت باخراج النساء من العمل فى المطاحن ، قد بنوا طلبهم صراحة على أن ذلك من شأنه أن يخفف الضغط عن سوق مفعم بالعمال ، بابعاد العدد الزائد منهن عن المزاحمة فيه . والذين أدلوا برأيهم أمام لجنة العمل التى أرادت أن تزاد الحدود والقيود المفروضة على عمل النساء فى المعامل

قد ذهبوا مذهبين : الأول أن هذه القيود من صالح النساء ؛ والثانى أن ميلهم الى زيادة هذه القيود انما يقوم على رغبة فى التخلص من مزاحمة العمل النسوى الذى أثر فى أجور العمال وفى معيشتهم تأثيرا بيناً .

لست أريد أن أبالغ فى الأمر . ولكن لى أن أقـول ان النساء أميل الى المحافظة على النظامات الحكومية من الرجال . ومما لا شك فيه أن النساء اذا أصبح لهن صوت ذو أثر فى هذه الاجور ، فانهن ولا شك لا يرغبن فى زيادة القيـود التشريعية ، أكثر مما يرغبن فى انقاصها ، وان حق تصويت النساء فى الانتخاب اذا تم لهن ، فان نسبة قليلة مما يكون لهن من الاصوات يكون ذا علاقة بالعمل ، ذلك بان اللواتى سوف ينتخبن من طبقة العاملات سـوف يكن قليلات . كذلك لا ينبغى أن يغيب عنا ان التنافس بين العاملات والعمال قد قلت حدته فى هذا العصر عما كان فى الماضى . فانه بعد كثير من الاخذ والرد والهجوم والدفاع بين الناحيتين ، قد تحدد لكل من الفريقين ، وعلى الأقل فى مجال الصـناع فى انجلترا ، مجاله العملى ، فاستقر الأمر بينهما استقرارا مقبولا ، حتى لقد اصبحت النسبة العددية بين العمال من كلا الجنسين متراوحة فى مجـال ضيق ، كما أن التغيرات التى تصيب عمل العاملات قد نزعت الى زيادة كبيرة فى سوق العمل ربحته عاملات الطبقة الوسطى ، ونقصان بين فى عدد المتزوجات من العاملات .

وبالرغم من كل هذا فان الحقيقة الواقعة هى أن البرلمان فى انجلترا كان يتدخل شيئا بعد شيء ممعنا فى فرض القيود والنظامات التى تملى املاء على الصناعات الهامة ، وان تشريعاته التى تتناول المرأة مختلفة أبعد الاختلاف عن التشريعات التى تتناول الرجل • ويدل ذلك على أن هناك مصالح منفصلة ، بل ومصالح متضادة ، ذات قيمة حيوية ، قد لاحت فى أفق المجتمع وان الأحوال التى تحمل على اعطاء النساء حق الاشراف على التشريع قد قوى وزاد [1] •

بالاضافة الى مشكلة طول يوم العمل والاحداث التشريعية التى تتناول عمل المرأة فى غير ذلك من النواحى ، فان هنالك مشكلات سياسية صرفة تؤثر فى موقف النساء ازاء نظام المصنع فى الحاضر أكثر مما كانت تؤثر فى الماضى • فان السوق الذى يزودنه لم يصبح السوق المحلى الذى زودنه من قبل بمصنوعاتهن ، والتجارة الخارجية وتجارة المستعمرات العظيمة ، تلك التى يقوم عليها نظام المصنع الحديث ، تتأرجح وتتذبذب بمقتضى تغير السياسة • فمشكلة حماية السوق الحرة ومشكلات المعاهدات التجارية ، والسلم والحرب ، والحصارات بحرية وبرية ، وامتداد اطراف الامبراطور وانكماشها ، وعلاقة المملكة العظمى بما يتبعها من المستعمرات ، عامة هذه المشكلات تؤثر بصورة مباشرة وسريعة فى وسائل العيش لمن يعدون بعشرات الالوف من

---

(١) كان هذا قبل أن يعطى النساء حق الانتخاب فى إنجلترا •

الناس . والاكثرية من العمال فى بعض فروع الصناعة وبخاصة صناعة القطن ، نساء ؛ ويقال انعددالنساء اللواتى اقصين عن العمل فى خلال الحرب الاهلية الامريكية ، أكثر من عدد الرجال الذين أصابهم التعطل .

هنالك انقلاب شبيه بذلك الانقلاب الذى أحدثه نظام المصنع يكاد يأخذ بخناق تجارة الحوانيت . فان النزعة الاقتصادية الحديثة تسير ببطء نحو التبدل مما يسميه الفرنسيون الانتاج الكبير ، بما يسمونه الانتاج الصغير . فقد زادت الصعوبات التى تواجهها البيوت التجارية الصغيرة بحكم أن نسبة بيعها قليلة ، فعجزت عن منافسة البيوت الهائلة العظيمة التى تعتمد فى نجاحها على سرعة تداول السلع برأس مال كبير ، وكثرة البيع مع قلة الربح . والأسعار، اذا حالت بين صاحب الحانوت الصغير والاتصال بالمشغل مادام بيعه قليلا وبطيئا ، فانها تجزى أعظم الجزاء وتنتج أكبر الربح اذا كان البيع كبيرا وسريعا ، وبذلك يقضى على الحوانيت الصغيرة لقلة ما تبيع ويحال بينها وبين الانتفاع بما يخرج المشغل لقلة ما تشترى . ذلك بأن الحوانيت الكبيرة قد تحتكر ، أو تكاد تحتكر ، فى نطاق بعينه ، ضروبا كثيرة من السلع . وهى تعرضها بسعر مخفض ، وفى أشكال ونماذج مختلفة . ثم تعمل على تنمية عملها وتجارتها بان تجمع فى بنائها بين مصنوعات مختلفة متباينة تؤدى أغراضا واسعة . ومايحدث هذاالنظام من الرضاوالتقبل عندالمستهلك

الذى يرضيه مرأى تلك المجموعة المنوعة من السلع التى يحتاج اليها ، يضفى على الحوانيت الكبيرة ميزة فى منافسة الحوانيت الصغيرة التى تكتفى بسلع قليلة .

ان نشوء هذا النظام التنويعى فى عرض السلع ، ولاسيما منذ صدور قانون المسئولية المحدودة فى سنة ١٨٦٢ فى انجلترا ، قد هيأ الفرصة لتأسيس مثل هذه البيوت الضخمة بينما تجد أن البخار ونظام طرود البريد قد جعل من السهل الهين على مثل هذه البيوت أن تمد منافستها الى عواصم المديريات والى القرى . بذلك نرى أن الصناعة قد أخذت تتركز ، فأصبح كثيرون ممن كانوا أصحاب حوانيت مستقلين ، مأجورين بمرتبات ، فانضموا الى صفوف العمال الذين جندهم أصحاب تلك الأعمال الواسعة .

كان هذا التغير لزاما ، لأنه نتاج أسباب اقتصادية قاهرة. ولقد كان ذا فائدة فى مجموعه ، ترجيحا أو تغليبا . ولكنه الى جانب هذا لا ينكر أحد أن له آثارا رجعية ذات بال ، وأنه قد جر معه جملة كبيرة من الآلام الممضة لاضرورة لها . وكان للكاتب أميل زولا خطر السبق فى احدى رواياته القوية الصادقة ، الى الكشف بوضوح وجلاء عن حقيقة تلك المعركة ، معركة اليأس والجهاد الفاشل ، التى قامت بين صاحب الحانوت الصغير ، ونده العملاق الكبير صاحب البيت التجارى ، وضغطه عليه ومطاردته له . ولن يضل باحث فيه فراهة النظر وعمق الفكر ، عن ان يدرك مقدار مافى هذا

التغيير من أثر الثورة الانقلابية فى حالات الصناعة • فان الطرق التى سلكت من قبل قد سدت وشوهت الى درجة كبيرة • وان عديدا وافرا ممن كانوا يسلكونها قد اضطروا ، بعد سنين انفقوها عاملين بأمانة وجهد ، أن يبحثوا عن موارد أخرى للعمل ، وقد نزل معظم الضغط على نفس تلك الطبقة التى تنزل مقتضيات العادة والاعتياد من حيواتهم وسعادتهم اسمى منزل •

لقد كان هذا الانقلاب بالغا منتهى الضرر بالمرأة ، اذا نحن بحثنا مؤتمين باعتبار من الاعتبارات المهمة • ذلك بأنه خلق نزعة هى على خط مستقيم مناقضة للنزعة التى تنشأ من انتشار استعمال الآلات • فان القوة البدنية ذات قيمة كبيرة فى عمل البيوت التجارية الضخمة مما هى فى الحوانيت الصغيرة التى حلت هذه محلها • وبهذا طردت المرأة الى حد ما من مجال العمل الذى لاح كأنه محلها المختار ، وظهرت جماعات كبيرة من الشبان على مناضد البيع فى البيوت الكبيرة يقيسون الاشرطة ويقصون لفائف الحرير !!!

— ٥ —

أثر هذا الانقلاب فى تقوية قضية القائلين بالغاء القيود التشريعية التى تعوق النساء عن الحصول على وظائف أو أعمال • كذلك أثر تأثيرا كبيرا فى عدد النساء ونسبتهن فى الصناعات القديمة ، كما بذلت جهود حقه ، سواء من طريق التشريع أم من طريق البذل الشخصى ، لتوسيع

دائرتهم فى العمل • ففتحت لهن أبواب العمل فى مكاتب البريد والبرق ومصارف التوفير وغيرها من الوظائف الصغيرة فى الخدمة المدنية كالهيئات البلدية وادارة سكك الحديد • كذلك تضاعف فيهن عدد المؤلفات والمشتغلات بالصحافة وفى جميع ميادين الفن • بل انهن قد احتكرن على وجه التقريب مهنة الكتابة على الآلات الكاتبة ، وهى مهنة يظهر أن أصابعهن المرنة قد خلقن لها • ومنهن من وجدن عيشهن على المسرح أو فى قاعة المحاضرة ، وقليلات منهن برزن فى فن التفتيش والمراقبة وبضعة من الوظائف الادارية التى تحتاج الى مهارة خاصة • ولقد حاول بعضهن أن يجدد فى الكنيسة الأنغليكانية نظام الاخوة على النمط الذى عرف به فى القرون الوسطى وكان يأوى الغالبية العظمى من النساء غير المتزوجات، ولكن التجربة فشلت لأن عصرها قد فات وانقضى أجله • وفى الولايات المتحدة سمح للمرأة أن تزاول المهن القانونية، فاصبح فيها عدد كبير من المحاميات ، وفى سنة ١٨٧٩ سن قانون يخول للمحاميات رفع القضايا أمام المحكمة العليا • على أن كثيرا من البلدان الاوربية قد رفضن الجرى على هذا المثل ، بالرغم من أن روسيا كانت منذ زمان مضى قد أجازت للنساء أن يكن محاميات ، وبالرغم من أن السويد ورومانيا قد أظهرتا استعدادا لاتباع خطوات أمريكا •

أما مافى المرأة من الاستعداد الفطرى لخدمة المرضى ، فظاهرة اعترف بها اعترافا كاملا ذلك بان المرأة اسرع شعورا

وأدق ملاحظة فى ادراك أتفه التغييرات ، وهى صفة من أخص الصفات اللازمة فى التمريض بنجاح ، وهى تتفوق على الرجل فى هذه الناحية تفوقا لا مراء فيه • ولـــكن العصر الحديث قد حور بعلمه وفنه كثيرا من صفات هذه المهنة اذ أصبحت علما يدرس وفنا يلقن ، فارتفعت الى درجة كبيرة من المقدرة والامتياز ، لخير طرفى الجمعية ، الرجل والمرأة ، على السواء •

وفى سنة ١٨٦٨ صـــدر قانون فتح باب الصيدلة أمام المرأة • وبعد عهد طويل من الجهاد استطعن أن يلجن باب الطب فيصرن طبيبات • وقد سبقت الولايات المتحدة فى ذلك انجلترا بل وأوربا جميعها فى ذلك ، فكان لديها من الطبيبات عدد كبير شغلن وظائف طبية ذات مكانة كبرى قبـــل أن تفكر أى من الامم الأوربية فى ذلك • وقد سبقت جامعـــة ادنبره غيرها من الجامعات فى انجلترا فى هـــذا المضمار • وفى ســـنة ١٨٧٤ اسست مدرســـة طبية للنساء فى لندن • وفى سنة ١٨٧٧ ابيح لهن حضـــور المحاضرات التمريضية فى مستشفى لندن • وفى سنة ١٨٧٨ صدر قرار تكميلى أباح لجامعة لندن أن تعطى درجات علمية للنساء من جميع كلياتها بما فيها كلية الطب • ولقد تبع جامعة لندن غيرها من معاهد العلم ، وعند نهاية ســـنة ١٨٩٥ كان فى انجلترا ٢٦٤ طبيبة ممتهنات كما يثبت من السجل الطبى البريطانى •

ومن الغالب ان لا يصبح الطبيبات منافســـات قويات للأطباء فى العمل التطبيبى ، ولكن هنالك فروعاً من التطبيب

النسوى تفضل خدمتهن فيها على خدمة الرجال عادة .
ولا شك فى أن العبقرية والنبوغ فى المرأة لابد من أن تلحظ وتحتل مكانتها فى عالم العمل ، كما هى الحال تماما فى الرجال. ولقد فتح فى الهند مجال واسع للطبيبات يتصلن من طريقه بملايين من نساء تلك البلاد التى يحرم فيها ، حتى فى عصر انتشار الأمراض الحادة بآلامها الشديدة ، أن يتصل الأطباء بالمريضات بأى حال من الأحوال . ولو اتيح لتلك البلاد ان تقبل فكرة تخريج الطبيبات فى معاهدها ليكن رسولات العلم الى مناطق الألم والمرض ، اذن لأدين للانسانية خدمة لا تقدر بقيمة .

لم تنفرد الأمم الانجلوسكسونية بالسير فى هذه الطريق. فان جامعة زوريخ لها فضل كبير فى السبق الى أن تصبح مركزا للتعليم النسوى فى الطب فى طور مبكر من اطوار هذه الحركة الارتقائية . ولكل من فرنسا وسويسرا وبلجيكا وايطاليا طبيباتها . بل أن سيدة من الفضليات كانت استاذة الباتولوجيا فى جامعة پيزا . أما روسيا فقد مر بها عهد كانت فيه على رأس الممالك التى مدت يدها بسخاء وكرم الى أوليائكن اللواتى أردن الالتحاق بالمهن الطبية وغيرها . ولكن فى أثناء الموجة الرجعية التى اجتاحت تلك البلاد فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فقد الروسيات كل هذه الخصائص . وفى سنة ١٨٧٦ حرم النساء بمقتضى مرسوم امبراطورى من مزاولة المحاماة ، وبعد ذلك بقليل حرمن من

معالجة التعليم فى المعاهد العليا ، ولم يسمح لامرأة بأن تزاول مهنة الطب فى جميع أنحاء روسيا .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أخذت مهنة التعليم تحتل مكانة سامية بين المهن المدنية ، وزاد عدد النساء اللائى يزاولنها حتى أصبح عددهن فيها كبيرا ، وبرزن فى التعليم تبريزاً جعل لهن مكانا ملحوظا ، سواء أمن ناحية الكفاية ، أم من ناحية المرتبات التى يتقاضينها . وبالرغم من أن التغييرات التى أصابت تعليم الصبيان كانت كبيرة وعلى نطاق واسع ، فانها كانت أقل أهميــة من تلك التى أصابت تعليم البنات فى السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر . فقد شاطر البنات الصبيان مزايا التعليم التى قررت بمقتضى قانون التربيــة الذى صــدر فى انجلترا سنة ١٨٧٠ ، وبخاصة عند تأسيس المدارس المتوسطة ومدارس الفنون والتعليم الصناعى الفنى ؛ ثم قانون التعليم الثانوى فى ارلندا ، وتحسين حال المدارس الاختيارية الذى أتى على أثر المنافسة التى قامت بين المدارس الداخليــة ، والخضوع للتفتيش الحكومى عليها ، وفتح الاعانات لها بنسبة النتائج التعليمية . أما المــدارس العليا وكليات السيدات التى أسست فى أنحاء متفرقة من المملكة البريطانية ، فقــد أتاحت لآلاف عديدة من النساء من أهل الطبقتين العليا والوسطى ، قدراً من التعليم أسمى بكثير من التعليم الذى ناله أمهاتهن ، وخرجت معلمات لمزاولة التعليم فى معاهد الدنيا وللأسر الخاصة أرقى من أنصاف المتعلمات اللاتى زاولن هذه الحرف من قبل .

ان التعليم السنوى العالى فى انجلترا قد توسع فيه ونظمت دراسته ورسمت قواعده حتى لقد أصبح ثمانين فى المئة من جامعات بريطانيا العظمى ، وكذلك الجامعة الملكية بايرلاندا ، من معاهد العلم التى تعنى بتعليم النساء وتمنحهن الشهادات والدرجات أما جامعتا اوكسفورد وكمبردج ، وكلاهما من الجامعات التى أيدها النساء بمالهن فى العصور الأولى ، قد ظلتا فى أواخر القرن التاسع عشر متحرجتين عن أن تمنح درجاتهما وجوائزهما للنساء . ولكن بالرغم من أن تزمت بعض رجال الكنيسة أمثال بارجون Burgon ولدون Liddon وپوسى Pusey ، فقدسمح للنساء أن يحضرن حلقات دروسهم . وان افتتاح كليات هتشن Hitchinn وجيرتون Gurton ونيوتهام Newnham وسومرفيل Somerville والسماح للنساء بشهود المحاضرات فى الجامعات الكبرى ، وأداء امتحانات الدرجات والشرف والامتحانات الموضعية التى تنظمها الجامعات فى طول البلاد وعرضها ، وتلقين العلوم الطبيعية والرياضية ، كل ذلك كان من شأنه أن ينشر المعرفة بين النساء وان يزيد من خطرهن سواء أكن من أهل الطبقة العليا أم المتوسطة . وان قليلا جدا من الاحداث العظمى فى تاريخ الحضارة الانجليزية ، ما يبز فتح أبواب الجامعات للنساء ، وقبولهن عضوات فى حركة الفكر والثقافة . أماماخافه بعض المعارضين منفتح أبواب معاهدالعلم للنساء، مثل الخوف من الفوضى فى النظام والأخلاق ، فاشياء لم يقم

عليها من دليل ، بل كانت مخاوف وهمية ، كما أنه لم تقم من حاجة الى تغيير كبير فى برامج الدرس •

على أن هــذه الحركة الارتقائية لم تقتصر على انجلترا وحــدها • ففى بلاد اســكانديناوة وايطاليا وســويسرا والولايات المتحدة والمستعمرات البريطانية ، فتحت الجامعات أبوابها للنساء ، وبذلت جهود الجبابرة فى سبيل رفع مستوى تعليمهن •

كانت صــوفيا كوفالفسكى Sophie Kovalewsky التى أثارت الترجمة عن حياتها اعجاب القراء وبعثت فيهم احساسا بالاكبار والاجلال ، اســتاذ الرياضيات العليــا فى جامعة استوكولم • على ان البنات كن قد اخرجن من حظيرة التعليم بمقتضى الاصلاحات التى وضعتها حكومة الثورة فى فرنسا وفىعصر نابوليون الأول • وقد اعتقد نابوليون بل استمسك بفكرة أن تعليم النساء لا ينبغى أن يتعدى الأوليات ولكن قوانين ١٨٥٠ و ١٨٦٧ قد أباحا تأسيس مــدارس ابتدائية لتعليمهن فى كل مركز من المــراكز الكبيرة فى فرنسا ، كما قصد قانون ١٨٨٢ الى أن يكون تعليم البنات اجباريا • وفى عصر نابوليون الثالث أســست فى باريس مــدارس لتعليمهن المهن ، وأتيح لهذه المدارس أن تتبع فى تعليمها برامج الكوليج دى فرانس Collège de France وعند سقوط الامبراطورية أتيــح لهن أن يحملن شهــادات الجــامعات فى الآداب والعلوم والطب •

ظلت المـانيا حتى عهد قريب متخلفة عن أكثر الممالك الأوربية فى التعليم العالى للمرأة ، ومضت الحكومة الروسية خاصة تقاوم كل حركة ترمى الى اعطائها حق الدخـول فى الجامعات والترخيص لها بالاشتغال بمهنة الطب • ففى أواخر القرن التاسع عشر كان فى روسيا ٢٠٩ مدرسة ابتدائية للبنات لم يكن منها سوى ١٧ مدرسة لها ناظرات والبقية نظارا ، كما أن فكرة الطبقة الحاكمة والجامعات كانت معادية لكل حركة قصد بها التسوية بين الجنسين فى التعليم العالى والثقافة العامة كذلك صدر عن الروح البروسى قانون فى سنة ١٨٥٠ حظر على النساء أن يكن أعضاء أو يشهدن اجتماعات كل الجمعيات المشتغلة بالسياسة أو التى تناقش فى المسـائل السياسية • ولقد كان فى النمسا وفى بقية الدول الالمانية مثل هذا القانون ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على الختام حتى نهضت المانيا نهضة كبيرة فى التعليم النسوى وتبعتها النمسا •

على أن العناية بأمر التعليم النسوى فى انجلترا قد بز من جميع النواحى امثاله فى القارة ، كما أن نساء انجلترا قد كان لهن السبق الى العلم والى الأدب والفنون على جميع نساء بقية البلدان الاوروبية • ولقد ظن أن التعليم قد يؤثر على الحالة الزوجية وانه قد يجعلها أقل صفاء وأقل سعادة ، لأن نسبة اللواتى سيلجأن الى الزواج باعتباره ملجأهن الأخير وملاذهن الاقتصادى سـوف يقل ، أو لأن الرجل والمرأة يكونان أشـد صلة وامتن أصرة اذا ربطت بينهما مصالح

جوهرية أو جمعت بينهما فكرات تميل الى الكظم والكآبة .
ولكن الواقع أن تعليم المرأة قد دل على نقيض ذلك تماما .
كذلك الانقسامات الكبيرة التي تفصل بين الرجل والمرأة من حيث الرأى والميول ، وكانت سببا فى شقاق مشاهد جد المشاهدة فى كثير من اسر القارة الاوروبية ، قد قلت أسبابه فى انجلترا أو هى كادت تختفى كلية ، وأخذت روح من التسمح والتساهل فى النشوء حالة محل روح التزمت القديم . ولقد دلت التجربة على ان الخوف من أن المرأة المتعلمة قد تهمل شئون بيهتا ، انما هو خوف لا محل له ولا سبب وانه الى جانب امرأة واحدة تهمل شئون بيتها لسبب انها متعلمة ، مئات يهملنها بسبب الاستهانة أو الفجور . أما ما لوحظ فى بعض النساء المتعلمات من الحذلقة والكبر والاسراف فى الذوق وفى الآراء ، فلم تكن أشياء غير طبيعية بحكم أن أمثال أولياء قد وجدن أنفسهن مهملات مقصيات وانهن فى حرب دائمة مع أوضاع الجمعية معرضات الى وابل من الاستهزاء والسخرية . فلما أن تغير الوضع وأصبح ما ليس طبيعيا طبيعيا ، وأعترف بما لم يكن يعترف به فى أوساط الجمعية ، امحت كل أوجه الشذوذ واعتدل مزاج المرأة المتعلمة وأحست بانها فى جمعية هى منها واليها .

خيف من شر آخر ظن أنه أنكى من سابقه وأدهى ، ذلك هو القول بأن نهج التنافس العقلى قد يفصح عن صدع كبير بين استعداد الرجل واستعداد المرأة ، بمقتضى ما فى

تكوين المرأة من رخاوة ورقة • ولكن أولئك الذين قاموا على التعليم النسوى العالى فى انجلترا لم يغفلوا هذا الخطر ، فجهدوا بحذق وكافحوا بمهارة فنجحوا فى التخلص منه وكان من نتاج جهدهم أن وقع تغير كبير فى الأمزجة والأذواق ، تقبلته الأمة من غــير أن تشعر بأنه وقع بالفعل • فان جمال الصحة الكاملة ومرح الروح قد حلا تدرجا محل الرقة المريضة والضعف والترهل وانحلال الأعصاب ، تلك التى كانت مثال الجمال فى القرن الثامن عشر • وأصبحت الملابس أكثر اتفاقا ومقتضيات الصحة ، والمرانة الرياضية من مستلزمات الحياة ، وعكف النساء على تمضية أوقات من المرح والتسلية تستخف الروح وتشحذ الذهن • ولقد صحب هــذا حركة التقدم الذهنى فيهن ، حتى لقد قال الاستاذ هكسلى انه فى خلال خمسين السنة التى توسطت القرن التاسع عشر طفر متوسط القوى البدنية فى النساء الانجليزيات طفرة كبيرة وبخاصة بين الطبقات العليا والطبقات المتوسطة • ولقد كان التعليم نعمة عظمى للنساء غير المتزوجات وهن كثر ، سواء أكن غنيات أم فقــيرات • وبالرغم من أن تعليمهن لم يبلغ مبلغ المثل الأعلى ، فانه على الأقل قد زودهن بسلاح يواجهن به معركة الحياة • فقد زاد الى كفايتهن ، وأوســع من نظرتهن فى الحياة وجعلهن أوصل بحاجات ومصالح لم يكن لهن بها صلة ، وغرس فيهن خلقا جديدا ، قلما تعجز عن أن تغرسه قيود النظام الذى تفرضه العادة المتواترة المركزة فى عمل بعينه •

بالاضافة الى ما تقدم ، اقول انه يتعذر على باحث لبق أن يفوته ذلك التغير الكبير الذى وقع فى الأوساط الانجليزية العليا فى خلال الجيل الأخير من القرن التاسع عشر خاصا بالأوضاع الاجتماعية المتفق على انها الحدود التى لا يسمح للمرأة أن تتعداها من حيث العمل فى هذه الدنيا • فان الفكرة الأغريقية القديمة ، فكرة ان عمل المرأة ينبغى أن يقتصر على المنزل ولا يتجاوزه وهى التى ظلت الى اواخر القرن التاسع عشر رائجة فى المانيا الى حد ما ، قد انتفت وتركت وزال أثرها فى بريطانيا ، وأصبح عدد من السيدات البريطانيات يتناولن من الأعمال ويؤدين بنشاط وأمانة خدمات للمجتمع كتلك التى يؤديها متوسطو الرجال • ولقد تناول هذا التغير كل ميادين العمل والتسلية والعادات •

جرت العادة فى بريطانيا حتى اواخر القرن التاسع عشر ، أن لا يؤذن لسيدة أن تمشي فى شوارع لندن بغير حارس ، أو تنتقل الا فى عربة مقفلة أو تسافر الا تحت ضغط اعتى الظروف ، ولا يؤذن لها بذلك الا اذا كانت برفقة رجل يؤتمن عليها• فكيف ينظر أهل ذلك الزمن لو انهم عادوا الينا ثانية ورأوا سيدات وشابات يرتمين فى احضان المجتمع الصاخب ويشهدن حفلات كرة القدم كالشباب ، ويختلطن بالطلاب فى الجامعات وفى قاعات المحاضرة والامتحانات العامة ، وانهن يخطبن الجماهير من فوق المنابر ، ويدبرن الحركات السياسية والاجتماعية ، ويتسلقن جبال الألب ، ويشاركن فى الألعاب

الرياضية ، ويسافرن بغير رفيق ، فيطفن أنحاء العالم المتمدين، ويدرسن ما يشأن بملء حريتهن ويناقشن فى أخص المسائل التى تقوم عليها دعائم الدين والعلم والفلسفة ؟ الراجح أن أول ما يلفتهم هو مرأى ذلك المخلوق الذى عرفوه مشاكسا صاخبا ، قد ارتد كائنا وديعا سهل القياد هادئا ، وليس بين المرأة التى كن يعرفنها فى زمانهم وبينه الا سمات فرضتها عليه الطبيعة فرضا .

ان الأسباب التى أدت الى هذا التغاير الظاهر وما ترتب عليها من النتائج ، قد تفتح أمامنا ميدانا فسيحا للبحث ، لا ينبغى أن نمر به غير آبهين . فان البعض يرون انه قد لا يقل أثره عن احداث ثورة أدبية فى اخلاق المرأة . أما أن تغايرا قد وقع بالفعل ، فذلك ما لا يمكن انكاره أو اخفاء أثره . ولكن يظهر لى أن مداه قد بولغ فيه كثيرا .

ان الطبيعة قد وضعت من الفوارق بين الرجل والمرأة ، مالا يستطاع تخطيه أو التغلب عليه . وفى خلال كل الأعصر تطلعت المرأة الى أن تكون أما أو زوجة ، وكان ذلك اسمى منزلة تتطلع اليها ، وسيظل حالها على هذا خلال كل الأعصر المقبلة ، تنقل معها جيلا بعد جيل أثبت المنافع وأرق العواطف. وانا لنرى أن التغاير كان أظهر وأجلى فى مجال الأخلاق الرقيقة ، وان بعض ظلال من الخلق النسوى قد أخذت تضمحل وتحول ، فى حين أن غيرها مضى يعمق ويقوى . والغالب أن النساء سوف يمضين فى المستقبل ، الطيبات والخبيثات ،

الأنانيات والغيريات ، محتفظات بنفس النسبة التى لهـذه الصفات من أنفسهن ، ولكن صفاتهن ، الطيبة والخبيثة ، سوف تختلط فى نفسيتهن بصـورة مختلفة عما هى عليه • قد نجد فى الطراز النسـوى الحديث قدرا أكبر من رجاحة الحكم وضبط النفس والشجاعة والاستقلال ، ومدى أوسع من العواطف والانجذابات والمصالح المادية ، أكثر مما كان ذلك فى غابر الأيام • ستصبح المرأة أكثر شكا وأقل سذاجة وتطوحا مع الاسـاطير والأوهام ، ولكن مع ذلك ستكون أبرد طبيعة وأشـد صلابة • قد يحتمل أن لا تقل غيريتها ، ولكن سيكون منشؤها أرجع الى حب الواجب والعادة الثابتة • بيد أن العناصر الانفعالية والدفعية والخيالية فى الخـلق ، بما يعتورها من الأخطار والمحاسن ، سوف تصبح أقل بروزا فى صفاتها • أما فى الطبقات الطيبة ، فقد يقع أن تكون قوة الاحساس بالواجب ، موجهة الى غايتها باستنارة الحـكم ورجاحة النظر ، هى القوة المسيرة ، وان الحياة بذلك ستضحى ألمع وأنور باتساع دائرة المصالح الغيرية والتضحية واللذائذ المفيـدة • أما فى الطبقات التى هى أدنى ، فلا شـك فى أن الشهوة غير المحكومة بالعقل ستكون أضيق دائرة وأقل أثرا فى الحياة ، ولكن الى جانب هـذا سيصبح الدين والقيود الاجتماعية أضعف وأشد تراخيا • كذلك سنجد أن الرغبة فى الأشياء المثيرة وحب الجدة ، تلك التى خلقتها حياة مزدحمة متدافعة بالمناكب ، سوف تزيد ، وأن حب الدنيويات ستلابسه صورة هى الى القساوة والى الدنيات أقرب شىء • وان قليلا

من أشياء هذه الحياة ما يبذ قباحة وبشاعة ، انهماك انسان لم يتجاوز الثامنة عشرة ، فى دنيويات يتطلع من طريق مافيها من مباهج ومسرات الى انتهاز الفرصة التى تواتيه ، وتقدير الدخل والخرج والتشاريف والمراتب وما مضى وما يتوقع ، كل ذلك بعين المدرة اللبق والمنطيق المتزن ، العالم بأن الكبوة قد تكسر ركبتيه .

الفصل الثالث

الولاية على قانون الأطفال ـ شرائع تتعلق بالمرأة المتزوجة ـ ملك المرأة ـ الأرث بلا وصية ـ حقوق الوالدات ـ حق الانتخاب للمرأة ـ قدرة المرأة الادارية ـ السياسة وخلق المرأة النساء المتزوجات ـ التأثير الاكليروسي ـ النزعات نحو حق المرأة فى الانتخاب ـ الحالة فى أواخر القرن التاسع

نابليون : مدام ـ انى لا أحب أن تتمحك المرأة فى السياسة .

أرملة كوندورسيه ـ لك الحق أيها الجنرال : ولكن من الطبيعي فى بلد تجتز فيه رءوس النساء ، أن يكون لهن الحق فى أن يسألن عن السبب فى ذلك .

— ١ —

كان من الضرورى أن تؤدى التغيرات التى ترتبت على ذيوع التعليم ، والظروف التى احاطت بالمرأة ومستوى الأخلاق الذى سمت اليه ، تلك الظواهر التى كانت نتاجا للروح التى سيطرت على القرن التاسع عشر ، الى أن تتحرك عواطف المرأة فتأخذ حياتها سمتا جديدا وأن تزيد عنايتها بالامور السياسية . ولا شك فى أنه قد مرت عهود قبل القرن التاسع عشر ، نبت فيها ميل نحو السياسة عند المرأة ، بل ان أهمية السياسة عندها فى ذلك الوقت قد بلغت من الأثر فى نفسيتها مبلغا عظيما . ولقد وصف الكاتب الانجليزى

المعروف مستر « أديسون » تلك الانقسامات الحزبية التى تولتها روح من العنف والشدة قلما يتصور قدره ، والتى وقعت فى اواخر عهد الملكة « آن » . لقد كان من شأن تلك الانقسامات أن تنشق الجمعية النسوية شيعا وفرقا . ولم يشهد تاريخ الانجليز عهدا تأثرت فيه ماجريات الأحوال السياسة بمثل ماتأثرت اذ ذاك بما تركت جهود المرأة فيها من طابع ثابت بالتفافهن من حول العرش والدفاع عن وجهة نظرهن دفاع النمرات . واذا تتبع الانسان مجرى التاريخ بعد ذلك العهد ، فلن يفوته أن يرمق بعين الاكبار نساء من المبرزات الضاربات أرقى المثل لجميع الناس ، مثل جيورجيانا دوقة ديفونشر ، أو مسز كرو أو مسز ماكولى أو اللادى چيرسى أو اللادى هولند أو مس مارتينو . غير أن السياسة عند المرأة فى أواخر القرن التاسع عشر قد اتسع أفقها اتساعا عظيما بل ان طابعها قد اختلف عما كان عليه من قبل ، فنشأ بذلك مشكلات نسوية ، يزيد اتصالها بالسياسة أو يقل ، وبرزت فى أفق الحياة الانجليزية .

— ٢ —

عندما أخذت العناية بالتعليم تزداد وتعظم ، وبدا كأن مدأ عظيما من القوة الارتقائية من الوجهة التعليمة ، يجتاح كل المثل القديمة فى انجلترا وأكثر دول القارة الأوربية ، لم تغفل المرأة بما فيها من كريم الأحاسيس وقوة التطلع الى أن نسبة كبيرة من المدارس الاعدادية الحرة ، وهى من ركائز

الرقى الفكرى فى القرن التاسع عشر ، انما قد أقيمت فى ذلك العهـد الذى يوصف الآن بأنه من أقل العهـود استنارة ، لتعليم أولاد « المحررين »[١] ، أو تعليم كل الناشئين الذين يولدون فى أبرشية ما ، وكفالة الأولاد الفقراء وتعليمهم وتدريبهم على الحياة بغير أجر أو تحمل أى عبء مالى ، وأن الفوائد التى ترتبت على هذه الحركة الارتقائية الكبيرة والمزايا التى تتجت عنها ، قد اختص بها الأولاد دون البنات • ومر عهـد عمدت فيه كل دولة من الدول ، وبخاصة بريطانيا ، الى أن تهب للأولاد فرصة التعليم المجانى بكل درجاته • فكان من نتاج ذلك أن قويت عند المرأة نزعة التطلع الى دخول الجامعات والمعاهد الأخرى • وان تلح فى التمتع بمساعدة الحكومات لها فى هذه الناحية •

ان جميع هذه الحالات تظهرنا على حقيقة واقعة فى جميع المجتمعات الأنسانية • فليس من الطبيعى أن يمضى نصف الأمة فى سـبيل من الرقى والاستنارة يكسبه فرصة أعلى فى الحياة على النصف الآخر من غير أن يتطلع النصف المعطل عن الرقى الى العمل على اللحاق بنظيره • على أن مثل هذه الظاهرات هى فى الواقع ضرورية ومحتومة بقـدر ما هى طبيعية • فان للحالات النفسية فى ذلك أثرها • ونزعة الانسان فى الحياة ، هى عند الرجل كما هى عند المرأة ، فى مستوى

(١) اسم أطلق على الزراع والعمال بعد سقوط النظام الاقطاعى .

واحد من حيث التأثير فى رسم الاتجاهات التى تسير فيها كل جماعة من الجماعات ٠

وليس من شك فى أن الذين يقولون ان المرأة قد خلقت للبيت ، لا يفطنون عادة الى ان الرجل قد خلق أول ما خلق زوجا لا فردا ، أى أنه لابد من أن يعيش فى أسرة ثم فى عائلة ثم فى عشيرة ثم فى شعب أو أمة ٠ وان من أوجب الأشياء لضمان حياة هذه المجتمعات على اختلاف ضروبها أن يتساوى النصيفان ، المرأة والرجل ، فى تحمل المسئوليات والاستمتاع بتطريات الحياة ، وأن يسايرا معا مقتضى ما تتطلب الحياة من ضرورات لتتم صورة التكافل الاجتماعى بين الزوجين فى كل نواحى الحياة فاذا تخلفت المرأة عن الرجل فى ميدان من ميادين الحياة ، سواء أكان ذلك الميدان عقليا أو انتاجيا ، كان ذلك من أخص ما يفسد رابطة التكافل التى هى العقدة الأساسية فى كل مجتمع انسانى ٠

ان الذين يذهبون مذهب ان المرأة لم تخلق الا للبيت ، لا يستطيعون أن يفسروا ذلك القول الا مأسورين بفكرة أن المرأة ليس لها أن تلاحق الرجل فى ميادين الحياة ٠ وماذا يكون شأن أولئك الذين يردون المرأة هذا المرد السحيق ، لو أنهم علموا أن المرأة ينبغى لها لكى تكون عضوا صالحا فى مجتمع ديمقراطى ، أن تستقل فكرا وعملا ونزعة ، وأن تشعر بأنها مخلوق له حق كل المخلوقات فى الحياة بتنوع

صورها ، ولها أن تعمل وتكسب عيشها وأن تستقل بكل مرافق حياتها ، وان مجتمعا لا تسود فيه هذه الصورة العالية من الحياة ، لمجتمع فاسد من أصوله ، عاجز عن الرقى ، بالغ منتهى ما يصل اليه الانحلال فى أبشع صوره .

— ٣ —

حدث أيضا أن تعاظمت عند المرأة ، طوعا لموجة التقدم ووفقا لسير الارتقاء الاجتماعى ، نزعة الاستقلال ، فكان من الطبيعى أن لا تتعامى عن التشريعات المجحفة والتفضيل الشائن الذى نصت عليه القوانين الانجليزية ، ورفعت به منزلة الرجل على المرأة درجات كبيرة ، وأثقلتها بقيود وقيدتها بحرمانات أبهظتها وأذلتها . ومن الأمثلة على ذلك انه حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، كان من حقوق الزوج القانونية ، مهما كان فى ذلك الزوج من سوء الخلق وحدة الطبع واسفاف النزعات ، أن يحول بين زوجه مهما كانت ورعة تقية صالحة ، وبين الاتصال بأولادها . وكان من حقه المطلق الذى لا يناقش ولا يمارى فيه أن ينتزع منها أولادها ، وهى ما تزال حية ترزق ، وأن يعهد بهم الى محظية أو خليلة . وظل الحال فى انجلترا على ذلك حتى سنة ١٨٣٩ اذ صدر قانون حضانة الأولاد فجعل للمرأة حق الحضانة الى سن السابعة ، ثم أباح لها الاتصال بهم بعد ذلك ، مالم تكن قد سافحت وثبت عليها السفاح . وصدر بعد ذلك قانون

فى سنة ١٨٧٣ جعل للمحاكم الحق فى ظروف معينة أن تحكم للمرأة بحضانة أولادها حتى يبلغوا السادسة عشرة من عمرهم • ولكن فيما عدا هذين الاستثناءين ، وما لم تتدخل المحاكم ، وذلك فى بعض ظروف شاذة ونادرة ، كانت ولاية الأب على أولاده شاملة كاملة ، بل قد لانبالغ اذا قلنا انها كانت مطلقة قريبة من الاستبداد المطلق •

وأنكى من ذلك كله وأمعن فى النيل من كرامة المرأة مهما كانت فاضلة ، انه حتى بعد موت الأب ، لا تنتقل حضانة الأولاد اليها • فقد كان من حقه أن يهملها ويوصى بحضانة أولاده الى غيرها ، من غير أن يبين لذلك عن سبب ومن غير أن يرجع اليها فى أى شىء من ذلك • وحتى اذا مات ولم يوص بشىء يتعلق بحضانة أولاده ، فان من حق أقرب أهله من العصب أن يستعمل نفس الحق الذى لم يشأ الأب المتوفى أن يستعمله فى وصيته ويقصى الام عن أولادها والاولاد عن أمهم • فهل كان شىء أشد من هذا بغيا ونزولا بالمرأة الى الدرك الأسفل من الحطة والمهانة ؟

لم يبلغ الانجليز المبلغ الذى وصله الاسلام من حيث حق المرأة فى حضانة أولادها الا سنة ١٨٨٦ اذ صدر قانون جعل لها الحق الطبيعى فى حضانة أولادها بعد موت زوجها • أما سلطة الرجل حال حياته فلم يمسسها هذا القانون ولا تعرض لها بشىء ، بل احتفظ له بحق أن يضم اليها

ويشرك معها من يشاء ويجعل له على الأولاد نفس الولاية التى لها بعد موته • ولكن أقل ما فى ذلك التشريع من التخفيف عن أثقال الامهات ان اعترف للزوجة بحق الحضانة ، ولم يكن يعترف لها بشيء من ذلك قبل •

— ٤ —

ولم يكن مركز المرأة فى انجلترا من حيث أن لها حق الملك ، بأفضل من حيث هى أم • فقد قيدت ملكية المرأة للعقار والمنقول بقيود شديدة قاسية ، أثرت فى مركزها الاجتماعى كما أثرت فى نفسيتها وفى مزاجها تأثيرا عنيفا قاسيا • فقبل سنة ١٨٥٧ كان من حق الرجل أن يهجر زوجه ، وأن يتركها بغيرما يقيتها أويقيم حياتها هىوأولادها منه ، وكان من حقه فوق ذلك أن يعود اليها بمحض اختياره ويستولى على كل مملوكاتها بالغة ما بلغت قيمتها وأن يبيع من ذلك ما يشاء بالثمن الذى يشاء ، ثم له بعد ذلك أن يهجرها وينبذها ، ثم يعيد عليها الكرة كما فعل أولا فيجردها من جميع ما تملك ثم يهجرها مرارا وتكرارا على نفس الصورة وبذات الاسلوب، وليس لها من قانون يحميها أو شريعة تقتص لها •

وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١٨٥٧ اذ دخلت مادة فى القانون الذى أنشأ محاكم الطلاق حمت لأول مرة فى تاريخ انجلترا مملوكات المرأة المهجورة ، وصدر قانون آخر فى سنة ١٨٨٦ قرر لها حق الارتداد على زوجها بما يتصرف

فيه من أموالها اذا هجرها • وتلك حماية ناقصة بل حماية صورية ، لأنه فيما عدا حالة الهجران وحدها ، فقد ظل للزوج الحق المطلق فى التصرف فى مملوكات زوجه وفى كل ما تكسب أو تربح أو ترث ، وعلى الجملة فى جميع ما يتناول حق الملك من الأشياء •

من الحق أن القانون كان يجبره على أن ينفق عليها ويقيم حياتها ، ولكن ذلك الأمر كان من الهين أن ينزل فى حالات كثيرة الى سد الرمق وستر العورة ، فضلا عن أن ذلك الوضع قد أحدث حالة اجتماعية خطيرة فى أواخر القرن التاسع عشر فى انجلترا وفى غيرها من الممالك التى سنت شرائع تشبه شرائع الانجليز • فقد عاش الازواج عالة على الزوجات المثريات وناموا مستظلين بالبطالة والكسل فى حمى القانون والشريعة ، متصرفين فى ما يملكن بمحض ارادتهم وعلى غير ارادتهن ، منفقين أموالهن فى الدساكر الليلية وفى أحضان المومسات • كل هذا بحماية من القانون واجازة من شرائع تلك البلاد •

وبعد جهاد ممض شديد امتزجت فيه المضحكات بالمبكيات ، واشتبكت فيه قوى الشر مع قوى الخير فى عراك تواصلت مواقعه فى أثناء الليل وفى أثناء النهار ، سن قانون فى سنة ١٨٧٠ جعل للمرأة الحق المطلق فى ادارة ما تملك من عروض الدنيا ، وكف الرجل عن شىء من ذلك العبث الذى

لم يكن له من سبب الا انه هو الذى شرع لنفسه وللمرأة ، فوضع من الشرائع ما أرضى خيالاته التى وجهها فى الاكثر ما فيه من نزوات التسلط وشهوات الخسة والدناءة وسفالات الانانية الكريهة .

على أن هذا القانون لم يكن الا قانونا حسن الصورة سيىء المخبر . فانه خلف ملكية المرأة ما عدا استثناءات لا قيمة لها ، غير محمية ولا مستندة الى حق تشريعى ظاهر ، فقد سكت القانون وقطع لسانه عن النص على شىء يجعل للزوجة ملكا متحيزا ينقل الى الذهن معنى الملك على ما نفهمه الآن . فلم يكن لهـا من حق أن تقاضى غيرها أو يقاضيها غيرها . ولم يكن لها الحق فى أن تتعاقد بغير ارادة زوجها واجازته قانونا . والملك الشخصى الذى يوصى لها به بعد الزواج اذا تجاوز مئتى جنيه أصبح الزائد من حقه المطلق . وبالرغم من أن القانون قد قرر ان لها حق الملك وأن الرجل قد كف عن سلطان التصرف فى ملكها من غير اجازتها ، فان له حال حياته الحق المطلق الذى لا يحد بحد ولا يتقيد بقيد فى التصرف فى غلة ذلك الملك كيف يشاء .

أما الذين يقولون بأن المرأة قد خلقت للبيت فانما هم يريدون أن يرتدوا بالمرأة المسلمة الى هذه الحال عينها ، ان لم يكن بنص القانون فبالحيلة حينا ، وبالتحايل حينا آخر ، لتصبح المرأة وما تملك متاعا للرجل . بئس للظالمين بدلا .

من عجائب الأوضاع الانسانية أن أمة لم تضرب بسهم كبير فى مدارج الرقى المدنى مثل روسيا فى القرن التاسع عشر، ظل حـق ملكية النسـاء فيها مقـررا محترما منذ أبعـد أزمان التاريخ ، بل ان هذا الحق كان ثابتا كاملا لا يؤثر فيه مختلف الحالات التى تتعاقب على حيـاة المرأة فهى قبل الزواج وبعده مطلقة التصرف فيما تملك ، ولا يؤثر الزواج فى ملكيتها بصورة من الصور . وفيما بين سنة ١٨٤٨,١٨٦٠ شرعت الولايات المتحدة عدة تشريعات ثبتت حق ملكية المرأة وجعلته قائما على أساس صريح من القانون .

أما فى القارة الأوربية ، فقد اختلفت التشريعات اختلافاً كبيراً باختلاف الأمم والدول . ففى بعض الممالك الأوربية ، وعند اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، كانت حقـوق الملك للمرأة أرقى بعض الشيىء أو كانت مساوية لحقـوقها فى انجلترا قبل سنة ١٨٥٧ ، ولو أنه كان من الممكن بشروط خاصة فى عقود الزواج ، أن تنحسن شيئاً ما .

فى بداية القرن العشرين وقبل نهاية القرن التاسع عشر اتجه التشريع الى ناحية العمل على استقلال المرأة بما تملك من حطام الدنيا ، ومساواتها بالرجـل من حيث ذلك . أما معاملة المرأة ، متزوجة كانت أو غير متزوجة ، معاملة القاصر أو السفيه الذى لاحق له فى أن يتصرف فى ماله أو أن يتعاقد

الا بارادة وصى أو قيم فأمر ظل قائما فى الشرائع الاسكنديناوية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حيث ألغى . كما أن آثار ذلك النظام قد ظلت واضحة فى تشريعات سويسرا حتى سنة ١٨٧٤ ، وفى الدنمرك الى سنة ١٨٨٠ . وصدر فى النرويج تشريع (سنة ١٨٨٨) حمى ملكية المرأة المتزوجة . أما القانون الايطالى من وجهة حماية ملكية المرأة المتزوجة ، فأرقى بكثير من القانون الفرنسى ، ولو أن القانون الايطالى قد استمد من القانون الفرنسى أصلا ، كما أن القانون المدنى الألمانى الذى عدل فى أواخر القرن التاسع عشر قد اتجه نفس المتجه الذى ائتم به المشرعون الايطاليون . ومما يغتبط له حقاً أن هذا الاتجاه النبيل قد ساد شرائع جميع الأمم المتمدينة فى العقود الأولى من القرن العشرين .

— ٦ —

أما الارث بلا وصية فقد ظل فى انجلترا موضعا لبعض العسف وتفضيل الرجل على المرأة . فاذا مات رجل بغير وصية ، ذهب نصف ما يملك لزوجته اذا لم يكن له ولد ، والنصف الآخر لورثته من العصب . أما اذا توفيت الزوجة ولم تترك وصية ، ذهب جميع مالها للزوج . وفى سنة ١٨٩٠ سن قانون نص على انه اذا مات رجل بلا وصية ، ذهب جميع ما يملك الى الزوجة اذا كان ملكه كله لا يتجاوز خمسمئة جنيه . أما اذا جاوز ذلك ، فانها تأخذ خمسمئة جنيه علاوة على نصيبها الأصلى منه .

وكذلك فى محاكم الطلاق ، فان المرأة لا تساوى الرجل فى الحقوق . فانه فى الوقت الذى يستطيع فيه الرجل أن يحصل على الطلاق اذا ثبت عليها الزنا ، فان على الزوجة أن تثبت الى جانب الزنا من ناحية الرجل نزوعه الى القسوة أوالهجران أوغيرذلك من الخبائث ، حتى تمنح أجازة الطلاق . كان هذا شأن الرجل والمرأة ازاء حق الطلاق قبيل نهاية القرن التاسع عشر فى انجلترا . ولكن فى سنة ١٨٧٨ سن قانون عدل بقانون آخر صدر فى سنة ١٨٩٥ جعل من حق النساء الفقيرات طلب الانفصال عن أزواجهن اذا ارتكب الرجل شيئا من أعمال القسوة والتعذيب أو الضرب أو اذا ثبت انه ترك أطفاله بغير ما يقيتهم اختيارا وجعل للمرأة حق الوصاية على أولادها الى سن السادسة عشر ، وأجبر الرجل على أن يعطى لهم نفقة أسبوعية طوال هذه المدة .

* * *

وما كان لمفكر اجتماعى أن ينظر فى هذه الحالات الا ويعتقد أن النساء الانجليزيات كن على حق فى أن يجأرن بالشكوى من التشريع فى بلادهن . وانه لحق أن الزيجات التى يتكافأ فيها الطرفان ، قد تقل فيها أسباب الشعور بعدم المساواة ، وان متاعب الحياة فيها تكاد تكون غير محسوسة ، ولكن وظيفة القانون الأساسية انما تنحصر فى حماية الضعفاء من سوء استعمال ما يكسب الاقوياء من حق ان شرعا وان عرفا .

ولم يكن فى القانون الانجليزى ناحيـــة ظهر فيها تمكن الاغنياء من الانتفاع بالقـــانون دون الفقراء ، مما كان فى شرائع الطلاق • فقد ظل أمر الطلاق أطول الازمان ممكنا لأولئك الذين يستطيعون تحمل النفقات الباهظة التى يتطلبها استصداراذن خاص من البرلمان • والمحاكم الخاصــة التى كان من شأنها النظرفيما ينزل بالنساء من عسف وجور ورد تلك المظالم عنهن ، كانت فى غير متناول الفقــيرات لكثرة نفقاتها وعجزهن عنه أدائها • ومع هــذا فانه فى البيــوت التى خيم عليها الفقر وهددها الخراب حتى لقد خرج من نوافذها الحب والعطف والانسانية ، حيث يسود الادمان على الخمر وترتع الرذيلة وتعصف النزوات بكل معانى الرحمة ، كانت ترتكب تلك الخطايا التى ان تناولها القانون بما يحقق المســاواة أو جزء منها ، فقـــد يحول الفقر دون ان يصلت القانون سيفه على رءوس البغاة المعتدين •

— ٧ —

ان عناية المرأة وازدياد الرغبة عندها فى الاشتغال بالأمور السياسية ، كان فى أكثر الامر تاجا لمـــا أحست من تفضيل الجنس الآخر عليها أمام القانون وفى المعاملات ، وأطمعها فى أن تنغمر فى لجج السياسة ما أنست من قدرة على رفع تلك المظالم التشريعية التى حاقت بها من قبل ، فمضت تعمل بجهد وفراهة نادرين على أن تنال حق التصويب فى الانتخـــابات

العـامة ، وقد بدأت حركتها تشتد وتقوى فى بداية القرن العشرين •

لقد كان للحركة السياسية النسوية فى انجلترا أسباب من التقاليد ومن العرف ومن القانون ، ولكن نزعتها الى العمل على نيل حق التمثيل النيابى انما يرجع فى أكثر الأمر الى عبقرى من عبـاقرة الانجليز هو الفليسـوف « جون ستيوارت مل » • بدأ « ستيوارت مل » حركته بأن قدم الى مجلس العموم مشروعا ملحقا بقانون الاصلاح ليقرر المجلس للنساء حق التمثيل النيابى فى سنة ١٨٦٧ ، ودافع عن مشروعه دفاعا مجيدا برسالة نشرها وبين فيها كيف تستعبد المرأة وكيف تنتهك حرمتها ، وعقب على ذلك ببضعة رسائل أخرى تناول فيها هذا الموضوع من جميع جهاته • ولقد قويت تلك الحركة من بعد ذلك اذ أيدتها ظروف جعلت الرأى العام الانجليزى أميل الى التسليم بحقوق المرأة النيابية ، حتى انتهى الأمر بأن اعطيت حق التصويت فى نواح قريبة جـدا من مجال السياسة الصرفة • ففى قانون اصلاح البلديات الذى صدر فى سنة ١٨٦٩ منحت المرأة حق الانتخاب فى جميع الانتخابات البلدية • وفى سنة ١٨٧٠ اعطين حق التصويت فى انتخاب أعضاء مجالس التعليم • وفى سنة ١٨٨٨ اعطين حق التصويت فى انتخاب أعضاء مجالس الاقاليم • أما قانون ١٨٩٤ ، ذلك القانون الذى حور فى انجلترا كل نظام الحكم المحلى ووسع

توسعة كبيرة فى نظامه التمثيلى ، فقد محى كل أثر لتفضيل جنس على الآخر فى مسائل الانتخاب .

كانت هذه البداية بمثابة تمهيد لأن تشترك المرأة فى انتخاب أعضاء مجلس البرلمان . فان اشتراكها فى المعارك الانتخابية الصغرى ، وتمرسها بخوض بعض المعارك كان فيها الكثير من التنابز والمجاهدة ودرس المشكلات المحلية وتكوين الرأى فيما يضر وفيما ينفع ، كل ذلك كان مدرسة عليا أخذت فيها مدارك الانجليزيات تتضح وتستقر على صورة ديمقراطية صحيحة أصبح لها فيما بعد أثرا بعيدا فى توجيه سياسة الامبراطورية ، حتى لقد أصبح لها الحق بعد سنة ١٨٩٤ أن تعطى صوتها فى انتخابات مجالس الابرشيات ومجالس الأقاليم ومجالس التعليم وانتخاب القيمين والأوصياء على الفقراء والمعوزين . ولقد أصبح لها فى جميع ما ذكرنا حق أن تنتخب وأن تنتخب ، فتتقدم ناخبة وتتقدم منتخبة . ولقد نجح كثيرات منهن فى نيل عضويات كثيرة فى هذه المجالس ، كما أن بعضهن قد استطعن أن يدرن معارك الانتخاب بقوة ومهارة أتعبت كثيرا من مبرزى الرجال . وكثير من هذه المعارك قد خاضتها المرأة على قواعد حزبية أو قواعد سياسية ، كما أن كثيرا من الضرائب التى فرضت على الشعب الانجليزى قد أقرتها مجالس أشترك النساء فى انتخاب أعضائها أو كن عضوات بها . واذن لم يبق بعد سنة ١٨٩٤ أمام المرأة

الانجليزية الا خطوة قصيرة لتصبح من مقومات الحكم الأعلى لتلك البلاد بنيل حق الانتخاب لمجلس البرلمان • ولكن بقى أمامها معركة حامية الوطيس ، كان من الضرورى أن تخوض غمارها •

— ٨ —

من الأسباب التى اقيمت للحيلولة بين المرأة والحقوق التمثيلية ، أسباب بعضها مضحك وبعضها مناف للعقل • من الأسباب المضحكة مثلا ذلك القول الذى يلجأ اليه اليوم بعض المصريين ممن يزاولون مهنة الرجعية اذ يبنون كل حجتهم على أن المرأة أم وينبغى أن تكون للبيت وللبيت وحده • ومن الأسباب المنافية للعقل بل وللطبيعة قول البعض بأن المرأة أخضع لشهواتها وانفعالاتها من الرجل • كأن هؤلاء القائلين بهذا القول لم يدركوا بعض الحق الذى أظهرنا عليه التاريخ فيروا الى أى درك من الاسفاف والفساد بلغت نزوات الرجال والى أية مهواة سقطت فضائل الانسان وضحى بها ارضاء لشهواتهم الخسيسة ونزواتهم واطماعهم وخبائثهم الجلى •

قيل فى أوربا ان كفاية المرأة على وجه العموم أدنى من كفاية الرجل • وقيل انه لم يخلق بعد امرأة دانت شكسبير أو هندل أو رفائيل • ومن ذا الذى قال بأن مثل هذه الكفايات الفذة العالية شرط واجب فى كل من يعطى حق التصويت

أو حق التمثيل النيابى ؟ ومن ذا الذى استطاع أن يثبت ان المرأة فى مختلف العصور لم تظهر من الكفايات ما كان ذا أثر بالغ فى الحياة السياسية ؟

ان الدور الذى سمح للمرأة أن تقوم به فى الحياة العامة قد اختلفت منازله باختلاف العصور . ففى اليونان القديمة وعند الرومان اقصيت المرأة ونحيت عن كل ما يتصل بالحياة السياسية العامة . اقصاها عن ذلك الميدان امران : القانون والفكرة العامة أى الرأى العام ، وجرداها من كل حق سياسى . فان من السقطات الشنيعة التى عدها الرومانيون على « اليوجابالوس » ، بل ان أبرز سقطة عدوها عليه على كثرة ماله من سقطات ومفارقات ، هو تعيين والدته عضوا فى مجلس السينات . فلما قتل ذلك الامبراطور قتلت معه ، واتخذ بعد ذلك كل احتياط تشريعى ممكن للحيلولة دون تمثيل ما اعتقد الرومانيون انه من أعظم مآسى تاريخهم . ولا يدلك على مقدار ما شعر به الرومانيون من انتهاك لحرماتهم من جراء ما ارتكب امبراطورهم هذا ، قدر ما يدلك أنهم وهبوه بعد قتله الى آلهة الجحيم . آلهة النار السفلى . وظل الأمر فى هذه الامبراطورية على ذلك حتى انتقل مقرها الى بوزنطيه فى الشرق ، فحكمت المرأة واحتكمت فى مصالح تلك الامبراطورية العظمى .

ولكن الأمر كان على عكس ذلك فى غير اغريقية وروما ،

اذا كان دور المرأة فى السياســة عظيما بالغ الأثر • فهنالك تلمع أسماء سميراميس وأرتميسيا وزينوبيا وديپورا ويوائيقية وبرنيقية ابنة بطليموس الأول وكليوبطرا • أما الصورة التى صور بها المؤرخ تاقيطوس النساء الجرمانيات وما كان لهن من أثر فى السلم والحرب ، فصورة فذة ولا مراء • وكفى أن نعرف أن الجــرمانيات كن شوكة فى جنب الأمبراطــورية الرومانية طوال ذلك الزمن الذى اشتد فيه الكفاح بين قبائل جرمانيا وامبراطورية روما •

أما ملكات مصر القديمة فكفى بهن مثلا • وأما ماتركن من أثر فى قيادة أكبر المدنيات القديمة وأعظمها أثرا فى ترقية النوع البشرى ، فذلك ما ينبغى أن يكتب فى صفحة الخــلد بحروف من نور • ولم تنزل المرأة عن مكانتها التى كسبتها فى مصر القديمة بعفتها وقوة خلقها حتى اليوم • فان الملكات ووصيات الملك اللائى يذكرهن التاريخ الحــديث قد رفعن ذلك المشعل الذى كانت ملكات مصر أول من حملنه فى تاريخ الانسان • وان قليلا من ملوك أوربا الحديثة من لهم الحق فى أن يرتفعوا الى مكانة ايزابلا الاسبانية أو كاترين الروسية أو ماريا تريزا النمسوية • وان أطــول ملكين مرا بانجلترا كانا ملك الملكة اليزابيت والملكة فكتوريا فلم يمر بالانجليز عهــود كانت أكثر من عهديهما رخاء وديمقراطية وأصالة وتمكنا فى الأصول والفروع •

وكذلك الحال اذا رجعت الى فرنسا • فقد يذكر تاريخ تلك البلاد مالا يقل عن أربعة وعشرين وصية من وصيات الملك ، حملن فرنسا على أكتافهن الرقيقة فى أعصف أيام تاريخها • ومن الأسف أن فرنسا قد أصابتها النكسة فى زمن الجمعية التأسيسية ابان ثورتها الكبرى ، فمنعت تلك الجمعية المرأة من أن تكون وصية على الملك ، وقصرت ذلك الحق على الرجال وحدهم • ومن ذا الذى ينكر أن ذلك كان انتكاسا فرنسيا ؟

— ٩ —

أما من حيث القدرة الادارية فلا شك مطلقا فى أن المرأة تفخر بمنزلة لاتدانى • فمن ذا الذى يستطيع أن ينتقص هذه القدرة اذا نظر فيما كان لها من أثر فى تأسيس المذاهب الدينية فى القرون المظلمة • ولا ننسى أيضا ما أظهر الديرانيات والراهبات من مقدرة فذة فى تدبير شئون الأديرة ، أو ما أبدى من حسن الادارة والفراهة التنظيمية فى العصور الأكثرجدة ، نساء قمن بتأسيس البيوتات الكبيرة كما أنشأن أو أدرن الأعمال الانتاجية أو الصناعية العظيمة أو معاهد البر • ولقد كان أثر المرأة بارزاً محسوساً فى جميع البلدان التى نجح فيها اقامة هذه المعاهد فحسنت فى كلها ادارتها وأدت بفضلها رسالتها على أكمل وجه •

ولا يدلك على شيء عن مقدار ماكان لتيك السيدات من منزلة واحترام ، مثل ما يدلك ما خلف الفنان المصور

رامبراندت وأتباعه من لوحات خالدة مثلوا فيها سيدات الدانمرك اللواتى قمن وصيات على معاهد البر فى تلك البلاد • وفى انجلترا الحديثة ضرب المثل بما كان للمرأة من قدرة وحسن تدبير فى ادارة بيوت الفقراء والمستشفيات والسجون والمدارس وفى غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية التى لاتحصى عداً • وان الأثر الذى خلفته فى تلك البلاد لأثر خالد حتى ليخجل أى انسان ألم بشىء من تاريخ انجلترا الاجتماعى أن يمارى فيه أو ينتقصه • وكم من ثروة بددها الرجال بالاهمال والاسراف قد استرد بفضل عناية المرأة وحسن قيامها على العمل واستمساكها بفضائل الأخلاق والعزم والحزم والقدرة الفائقة • وفى أية ناحية من نواحى مجتمع كبير تقع على مثل تلك الفراهة الفذة التى أظهرها نساء الطبقة المتوسطة فى فرنسا ، تلك الفراهة التى نوه بها أفراد من الكتاب وعباقرة من رجال الاجتماع •

وبعد : فمن ذا الذى ينكر أن تلك الكفايات العليا التى امتازت بها المرأة فى جميع ماذكرنا من نواحى الحياه فى أوربا ، لم تكن ذات أثر بالغ فى الحياة العامة ؟

وما من شك من أننا فى مصر الآن نجتاز نفس ذلك الطور الذى نبذ فيه أهل أوربا فضيلة الاعتراف بالحق ، وراحوا ينظرون فى مثل الحقائق التى ذكرنا نظرة من يعتقد أنها سطحية أو منافية للعقل ، ذلك بأنهم أنكروا أن الكفايات العقلية والخلقية ذات قيمة ما فى التصويت الانتخابى وفى

التمثيل العام ، فى حين أنهم قد أضفوا ذلك الحق على فئات من الأغبياء والبلهاء والجهلاء والمسرفين وأهل الفراغ • بل انهم سبقونا بقرن كامل فى العمل على تقوية الأحزاب بأفراد من أهل النفوذ والعصبية ، وأهملوا أهـــل العلم والكفاية والاستقلال فى الرأى والصراحـــة فى القول • وما ذلك الا لأن الحـــكومات التى لم يكمل فيها الاستقرار الديمقراطى انما تعتمد على النـــواب الآليين ، وتكره الذين يعقلون أو يفهمون • ولعل هذه الظاهرة عامة فى جميع الحكومات على اختلاف ألوانها وعلى تفاوت درجاتها مهما كان أمر استقرارها التمثيلى • بل أضيف الى ذلك أن ممثلى الأمة فى حـــكومة ضعيفة رخوة القوام مائعة الـــكيان ، انما هم صورة من الحكومة التى تعتمد عليهم فى الفوز بأغلبية فى مجالس التمثيل تضمن لها كراسى الحكم •

— ١٠ —

سبب آخـــر من الأسباب التى يركن اليها أولئك الذين ينكرون على المرأة حق أن يـــكون لها صوت فى السياسة ، ينبغى لنا أن نتكلم فيه بايجاز ، لأنه على ما أعتقد ، ليس من الأسباب الواهية التى لا ينبغى أن يؤبه لها • ذلك قولهم أن المرأة أقل من الرجـــل قوة بدنية وانها لا تدافع عن الوطن فى معامع الحرب • وقد يكون فى ذلك شىء من الحق لو أن الأمر لم يقف عند الحالة الراهنة بين الرجل والمرأة ، وساوت

القوانين والشرائع مساواة تامة بين الجنسين فى جميع الحقوق على اختلاف ضروبها وتباين حالاتها . كان يصح أن يكون لهذا الكلام بعض الوزن اذا فرضنا أن أصحاب الحق فى التصويت من الجنسين سوف ينقسمون فريقين متعادين : النساء فريق والرجال فريق آخر . ومن ذا الذى فى مستطاعه أن يقضى بأن الشرائع ينبغى أن تحرم النساء المسنات والرجال المسنين من الحقوق المدنية كافة لأنهم أصبحوا عاجزين عن القيام بواجبات الحرب أى الخدمات العسكرية ؟

وحتى لو فرضنا أن الاشتراك فى الحرب شرط ضرورى فى من يكون لهم حق التصويت ، فان هذا الفرض لا ينهض دليلا على حرمان النساء من حق الانتخاب وحق التمثيل . فان النساء ، شأنهن فى ذلك شأن الرجال ، يتحملن من أعباء الضرائب التى تفرض فى كل حرب نصيبا غير منقوص ولا مزيد عما يتحمل الرجال . وبالرغم من أنهن لا يحملن من أعباء الحرب ما حمل الجرمانيات اللواتى وصفهن « تاقيطوس » أو ما حمل الارلنديات فى القرن السابع اذ كن يصاحبن أزواجهن فى ميادين الحرب ، فانهن قد اضطلعن فى كل حرب حديثة بنصيب ذى قيمة كبيرة . فهل من المفكرين أو غير المفكرين نزق أحمق يستطيع أن يقول أن ما قام به جاويش فى ميادين الحرب كان أثمن قيمة وأعلى قدرا مما قامت به « فلورانس نيتا نجيل » فى حرب القرم « أومس كافل » فى الحرب العالمية الأولى ، هما ومن كان معهما من المتطوعات؟

وليس المثل الذى ضربه هاتان بأكرم من المثــل الذى ضربه النساء فى حرب أمريكا الأهلية اذ قمن بتأسيس « البعثة الصحية » التى خففت الكثير من ويلات الميدان ، وكان عملهن المثل الأول الذى انتحاه فيما بعد كل أمم الأرض ، وما جمعيات الصليب الأحمر غير أثر من آثارهن !!!

وما كانت الحرب غير واجب من واجبات كثيرة تفرضها الحياة القومية ، وليس هنالك من سبب حقيقى يحملنا على أن نربط بين ذلك الواجب وحق التصــويت • واذا كانت الحروب فى البلاد الديمقراطية لا تعلن الا بارادة نواب الأمة ، فلماذا لا يــكون للمرأة رأى فى ذلك اذا كان من الضرورى أن تحمل عبء الحرب مع الرجال •

قيل بأن الصوت الانتخابى انما يمثل القوة ، كما يمثل ورق النقد معدن الذهب ، وانه من أخطر الأشياء فى حياة أمة من الأمم أن تفصل الشرائع بين قوة التصويت والقوة الطبيعية هذا ليقال أن الرجل هو صاحب القوة العضلية ، فهو اذن صاحب الحق المطلق فى التصويت • وان هذا لدليل فيه نقص ، لأن المرأة لم تقاوم فى عهد من عهود التاريخ أى تشريع دعاها الى التضحية فى سـبيل الواجب القـومى بما فى ذلك أعباء الحرب ، ولم تأنف أن تسرف فى انهاك قواها العضلية اذا دعيت الى اداء واجب • وانها لتؤدى كما أدت خلال كل العصور واجبات لم تنقصها الحاجة الى استعمال

القوة العضلية ، ففى الحقل وفى المعمل وفى البيت لا تضن المرأة بعضلاتها كما أنها لا تضن بأعصابها وجميع ما أضفت عليها الطبيعة من مواهب الحياة .

— ١١ —

وقيل بشيء من المرارة والحزن العميق أن جملة مافى المرأة من خلقيات سوف يتنابه انقلاب كبير اذا سمح بأن يكون لها حق التصويت فى الحياة العامة . وليس فى معركة تحرير المرأةعلى تشعب أطرافها واتساع نواحيها منموضوع استأثر بعناية الكتاب والمفكرين أكثر مما استأثر موضوع الخلق النسوى وتأثره بالانغمار فى الحياة الصاخبة التى ندعوها حياة الرأى العام .

أما من حيث التزاحم على ابداء الرأى فى الانتخاب فمشكلة حلت باتباع طريقة الصندوق الانتخابى . فليس من شيء أسهل على انسان رجل كان أو امرأة من أن يدخل حجرة هادئة ثم يمسك ورقة يكتب فيها اسم شخص آخر ثم يلقى بها فى صندوق أمامه . أمر لا يأخذ من وقت الانسان أكثر من خمس دقائق كل خمس سنوات ! ! !

ومن ذا الذى يقول بأن هذا العمل البسيط أو التفكير فى تكوين رأى سياسى ، هما من الأمور التى تدخل كثيراً فى تبديل الأفكار أو الأخلاق أو مقومات الحياة ؟ والذين يتناولون هذه المسائل الهامة بالبحث يكتبون وهم متأثرون

بفكرة خاصة هى أن كل من له حق الانتخاب العام أو التمثيل النيابى انما يقضى كل برهة فى حيـاته مهموما بذلك الأمر منغمسا فيه مستغرقاً فى بحثه والفحص عن كل مايتعلـق به من أمور هذه الدنيا . وليس الأمر كذلك على اطلاق القول . وقيل بأن المـرأة انما خلقت للبيت . وان كثيراً من النساء وبخاصة ممن ينبغى أن يكون لهن حق الانتخاب والتمثيل وهن فى العادة متعلمات مثقفات ، لا يجدن فى بيوتهن من المهام ما يقطعن به وقت الفراغ الطويل ، فيبحثن عادة عن عمـل أو يتخذن لهن مهنة مفيدة ، يزدن بها مركزهن الاجتماعى قيمة ويستقوين بها على مجابهة هـذه الحياة أو يستعن بها على طرد السـأم والملل . وانه لمن البين أن الحيـاة البيتية الصرفة ، المقصـورة على مهام الحياة الأولية ، لحياة تجد فيها المرأة من السأم ما يجد الرجل الممتهن من بواعث الملل فى مهنته . وهل يوجد فى هذا العالم كله من امرأة يستغرق البيت من حياتها اربعة وعشرين ساعة فى اليوم ، فلا تجد فى هـذا الزمن فترات يمكن أن تقضيها عاملة أو مفكرة أو منتجة ؟ وهل توجد زوجة أو أم أو فتاة استغرق البيت كل ساعات حياتها ، بحيث لا تستطيع أن تقطع منها جزءا تنفقه فى التفكير فى مستقبل أمتها ومركز دولتها من العالم الحاف بها كما يفكر الرجل ؟ وهل فى أشـياء هذه الحياة من شىء هو أبعد عن المنطق من الاعتقاد بأن مجموعة أصحاب الأصوات فى أمة انما هم فئة مختارة منتقاة ، أكب افرادها

على درس السياسة والاجتماع ومهروا فى وزن حقائق المشكلات العالمية ، وان هـذه المجموعة لن تكون الا من الرجال دون النساء !!!

— ١٢ —

من الهين أن يدعى انسان انه من المكروه أن يكون للمرأة أية علاقة بالسياسة أو أن تنصرف الى التفكير فى الامور السياسية ، وانه من مصلحتهن ومحافظة على مركزهن الطبيعى فى المجتمع أن يظللن بعيدات عن الانغمار فى هذا المعترك . كان هذا رأى الاغارقة فى الزمن القديم . وما زال عليه كثير من أهل هذا الزمان . ولقد استعلى هذا الرأى فى بريطانيا الى اواخر القرن التاسع عشر . ولكن مما لا سبيل الى انكاره ان تطور الحالات الاجتماعية ونشوء فكرات جديدة فى الآداب عامة وخاصة ، وتقدم العلوم والفنون ، وسيادة نزعة الحرية على كل ما عداها من النزعات الانسانية ، عامة ذلك لم يجعل لهذا الرأى من وزن يقام فى هذا العصر . ولقد مر على كل البلاد التى ضربت فى المدنية الحديثة بسهم ، دور من الانقلاب الفكرى كانت فيه مشكلة المرأة الاجتماعية من أظهر ما عنى به الساسة والمصلحون ورجال الدولة . ذلك بأن ما أصبح للمرأة من أثر فى السياسة صـار قويا يانع الأثر فى جميع البلاد التى امحت فيها الأمية وشارك فيها الفتيات الفتيان فى التعليم الجامعى وسمى فيها الأدب والفن وذاع ما لهما

من توجيه فى الحياة العامة • واذا نظرنا فى الثورة المصرية خاصة ، لما وجدنا من مظهر فيها كان أبلغ أثرا من خروج المرأة المصرية الى ميدان العمل والفكر •

* * *

تعتلى المرأة الآن منابر الخطابة ، وتحرر فى الصحف ، وتؤلف الكتب وتفكر وتؤيد حزبا على حزب وتنضم الى فريق دون فريق وتنحاز الى رأى دون رأى • وبالرغم من أن المرأة فى مصر لم يصبح لها حق الانتخاب أو التمثيل ، فان أثر المتعلمات قد أصبح ذا أثر محسوس فى الحياة وبخاصة فى الأمور السياسية • وينبغى أن نعلم ان أثرها فى السياسة كائن بالفعل • واذن يكون اعطاؤهن حق الانتخاب ، ليس ضروريا ليصبحن سياسيات ، لأنهن أصبحن سياسيات بالفعل • ولا ننسى ان حرمانهن من هذا الحق قد يجعل اشتغالهن بالسياسة منصرفا الى ناحية الدعاية والتهييج الاجتماعى ، بدلا من أن يكون مثمرا مجديا اذا أضفى عليهن ذلك الحق الذى ينادى بأنه الحق، كل مظهر من مظاهر التطور الذى سرنا فيه حتى الآن •

* * *

— ١٣ —

نظر فى مشكلة المرأة من ناحية فلسفية ، وان شئت فقل من ناحية فوقيطبيعية •

نزع المفكرون فى هـذه الناحية الى ما سـمى الحقوق الطبيعة ، ثم الى سـنن الطبيعة ، التى وصفت حينا بأنها فطرية شاملة ثابتة لا تتغير • وكل ما قام على هذه النواحى الفطرية من الأقوال والمبادىء ، ينبغى أن ينبذ الآن ويطرح • فقـد كان وليد حالات اصطناعية فى المجتمع فات زمانها وانقلبت آيتها •

فان القول بالحق الطبيعى الذى أيده « روسو » وتابعوه وقام على أن كل رجل يملك بالطبع شطرا من القوة السياسية، والقول بالسنة الطبيعية غير المبدلة من أن المرأة خلقت لتكون عالة على الرجل وانها لا تصلح لأن يكون لها ضلع فى الحكم ، كلاهما لا يقوم على أساس من الصحة ، بل انهما من النظريات التى أملتها وراثة طويلة لتقاليد حالات اجتماعية جامدة ، ظن خطأ أنها من أشياء الطبع ، وأنها ليست من الافتعـال فى شىء •

قد يقال بشىء من الحق أنه حيثما نقع على شىء من عدم المسـاواة السياسية أو المفارقات فى الوضـع الاجتماعى ، فان ذلك انما يبرر فى العادة بشىء من المنفعة تجنى من ورائه• فهل من الحق مثلا أن يكون شراء بيت أو أى عقار آخر مبررا لاعطاء الرجل حق الانتخابات ولا يكون مبررا لاعطاء المرأة نفس هذا الحق ، كما حدث فى كثير من البلاد الديمقراطية ، أم ان ذلك من المفارقات التى لا تقوم على أى أساس من المنطق أو الواقع ؟

هل من الحق أن تكون المرأة القائمة على ادارة بيوت صناعية كبرى يستخدم فيها عمال ، أو التى تملك عقارا ينتفع به مستأجرون ، تحرم من حق الانتخاب ، ثم يضفى هذا الحق نفسه على عمالها ومستأجرى أملاكها ، كما حدث فى انجلترا الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكما هو حاصل فى مصر اليوم ؟

وهل يصح عقلا ومنطقا ، كما حدث فى بعض البلاد من قبل ، أن المرأة المالكة لأطيان زراعية ، والتى يحتشد من حولها قطيع من المنتفعين أو المستخدمين والعمال ، تظل عطلا من التمتع بأى حق سياسى ، فى حين أن أولئك الذين يعيشون بفضل ثروتها والذين هم فى الواقع خدامها وعمالها ، يكون لهم ذلك الحق دونها ؟

هل يصح ، كما صح فى كثير من البلاد الاوروبية التى ربطت نظمها التمثيلية بين دفع الضرائب وحق التصويت والتمثيل وجعلت تلك الحال أساسا أوليا من أسس الحرية ، أن يحرم النساء المالكات من أن يكون لهن صوت فى فرض الضرائب الحكومية التى يشاركن مشاركة فعلية فى دفعها ؟

— ١٤ —

اعترض على اعطاء الحق السياسى للمرأة باعتراضين ، كلاهما ظاهر البطلان :

الأول : ان النساء لايطالبن بذلك الحق ، حق التصويت والتمثيل ومن ثمة بحق الحرية السياسية .

والثانى : بانهن اذا نلن هذا الحق·فانهن سوف يستعملنه بطريقة تضر بمصالح الأمة •

قيل بمثل هــذا فى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا والمانيــا • وليس لنا أن نطنب فى سرد الأدلة التى أقامهــا أصحاب هذا القول ، والأدلة التى استند اليها معارضوهم • ذلك بأن الدليل المادى قد قام بالفعل ، فاعطيت المرأة حقوقها السياسية فى تلك البلاد وفى غيرها ، ولم ينتج عن ذلك أى ضرر بمصالح تلك الأمم من جراء ذلك • بل انى أعتقد أن التوازن الاجتماعى قد أصبح بذلك أكثر استقرارا والآداب السياسية قد أضحت أرفع وأسمى مما كانت •

* * *

ان الذين يقولون بأن المرأة عنصر فاسد فى دنيا السياسة ، انما يتكلمون بعقلية أثرت فيها التقــاليد الموروثة وأصابها جمود التواتر الزمانى • وانه لمن أعسر الأشياء على عقليات استأثرت بها نظامات أصبحت على مر الزمان لزاما ، ولبست ثوبا من القداســة ، أن ترى الحقائق الواقعة سافرة بينه • لأن غشاوة العقيدة الموروثة التى تعمى على هذه العقليات ، تحجبها على أن ترى تلك الأشعة اللامعة التى ترسلها طبيعة المرأة فى ظلمات المجتمع الانسانى ، وتقف بها عند خرافة أن كل الفضائل وقف على الرجل وان كل الرذائل وقف على المرأة ، كأن الطبيعة عند هؤلاء الجامدين قد فصلت فى الأزل

بين طبيعتين أحداهما جعلت سكنا للفضيلة وخص بها الرجل، وجعلت الأخرى سكنا للرذيلة وخصت بها المرأة ، وان كل الحقوق المدنية والسياسية ينبغي أن تقوم على هذه الخرافة . والله يعلم فى أى من الطبقتين تكمن أخس رذائل الأخلاق .

ولئن كانت الخرافات قد شيدت فيما مضى معابد الكلدان ومصر ، فانها قد شيدت فى عالم الاجتماع صوامع للفكر حبس فى أركانها الأربعة ، وأسر فى لبناتها المرصوصة. وعندى أن نكران حق المرأة السياسى فى جميع العصور كان عنوانا على طفولة العقل ، أمعن من دلالة تلك المعابد التى شيدها الوهم فى جميع المدنيات .

على المرأة وعلى الذين يؤيدون حقوقها السياسية أن يرفعوا الصوت مدويا ، ويرسلوا الصرخات مرعدة مبرقة ، فان فى الحياة المصرية يلمع نجم جديد .

القسم الثانى

حقائق واضحة فى تطورنا الاجتماعى

الفصل الأول

نعمى عن الحقائق ـ العقلية التى تعالج بها مشكلة المرأة ـ وراثتنا القديمة ونهضتنا الجديدة ـ المرأة فى حياة القصور ـ المرأة فى حياة الحظائر ـ تنشئة الفتاة فى حياة القصر ـ الدادة والأغا ـ عقد نفسية تكتنف المرأة ـ سلطان سيد القصر ـ التزوج بأكثر من واحدة وأثر الانقلاب الاقتصادى .

— ١ —

نعمى فى هذه الدنيا عن الحقائق الملموسة ، اما لمنفعة نرجوها ، واما لتقاليد ورثناها ، واما لعقيدة انتحلناها ، واما ارضاء لنزعات نفسية ، خسيسة أو رفيعة . ولكن نعمى على أى حال عن ادراك الحقائق على روعتها وبيانها ، ويستعصى علينا أن نرضى الشهوات والعقل معا ، وكثيرا ما نقمع العقل لنسترسل مع الشهوات .

وقضية المرأة فى الحياة الاجتماعية ، من القضايا الكبرى التى احتكمت فيها شهوات الرجال ، وصالت فيها نزعاتهم ، وعموا فيها أو تعاموا عن الاعتراف بحقائق هى من البيان والظهور بحيث لا تحتمل مراء أو استرابة .

ومضى الكثيرون متعامين عن الحق الواضح الجلى ، قائلين بأن قضية المرأة قضية محلولة ، وان الزمن القديم قد وضع لها القواعد وفصل الأصول وأتم الفروع ، مؤتمين فى ذلك بنظريات وأقوال أبلاها الزمن وناء عليها الدهر ، فأصبحت مهلهلة فضفاضة بادية العوارت ، ولكنهم يحاولون ستر عوراتها بالثرثرة الفارغة كقولهم « المرأة للبيت » وقولهم « الرجل قوام على المرأة » وقولهم كما قالوا من قبل « المرأة ليس لها نفس » ، من غير أن ينظروا برهة واحدة وراء ظهورهم ليروا ذلك الفارق البعيد والصدع الكبير الذى يفصل بين زماننا والزمان الذى راجت فيه مثل هذه الآراء ، ومن غير أن يدركوا شيئا من فواصل الزمن والتطور التى تفصل بين المرأة فى القرن العشرين بعد الميلاد والمرأة فى القرن العشرين قبل ذلك الميلاد .

كأنما الزمن لا يدور وكأنما الأرض لاتلف حول الشمس، وكأنما تطور الأشياء ، عضويا ومعنويا ، ليس له من أثر فى الحياة ، وكأنما العقل لا يستكشف والنزعات لا تسمو وتكرم ، والفكر لا ينظر ولا يتأمل ، والنفوس لا تتبدل ولا تتغير ، والعلم لا يغزو الاجتماع ، والاختراع لا يرقق من متاعب العيش أو يرفع من مطامع الناس فى دنياهم .

نعود الى الوراء ، ونمعن فى الارتداد الى أساطير القرون الأولى ، ونرتمى فى أحضان النزعات النفسية والآراء المسفة

التي غزت عقول أوائلنا وأرضت مشـاعرهم وهم يقطنون الكهوف والمغـاور ، ويسرحون كالسـوائم فى الحرجات والأدغال ، كل هـذا لنعمى على الحقائق الواقعة والوقائع الماثلة ، ولنرضى فينا شهوة أو تتمسك بتقليد درجنا عليه أو رأى نستعز به أو نعرة تدوى فى أدمغتنا دوى الرعـد ، لنخفت صوت الحق وننكر تطور الأشياء .

ما ظهرت هذه الأشياء واستقوت واستشرت فى شىء من أشياء الحياة الاجتماعية ظهورها فى قضية المرأة وبضعة قضايا أخرى منها انتشار الأديان العظمى وبزوغ عصر الديمقراطية الحديثة والانقلاب الاقتصادى الذى نعيش فى ظل موحياته .

على أن هذه النزعات العجيبة قد يعسر عليها الآن أن يكون لها نفس التأثير الذى كان لها فى العصور الأولى ، بعـد أن غزا العلم العالم ، ورفع الحواجز والحدود بين الأمم وبعد أن تحرك القلم فسالت حركته على الصحف وبفضل المطابع ، وسـخرت الموجات الأثيرية لنشر النور فى أرجاء هـذا السيار الصغير . ذلك بأن هذه الدنيا ، بفضل العلم ، قـد درجت نحـو الوحدة والعـالمية ، وأخذت تخلـع عنها لباس العزلة والأسر . يدرج العالم الآن بمختلف شعوبه وألوانه نحو الوحدة التامة ، لا فى السياسة ، ولكن فى الميول والمشارب والمشاركة فى ما كشف العلم من بركات وما صنع الاختراع من تطريات . وان العـالم ليسير فى سـبيل هذه

الوحدة برغم ما تظهر فيه من رجعية بعض الأحيان ، مثلها مثل الغريق الذى يطفو حينا ويطغى عليه الموج حينا ، ثم ما يلبث أن تبتلعه الأعماق . وان السياسة التى انفردت حتى الآن بتصريف حالات العالم واحتكمت فى مستقبل الشعوب والجماعات ، لتشعر اليوم بأن نزعة الوحدة العالمية قد قطعت شوطا كبيرا أخذ يوجهها شيئا ما ، وسوف لا نلبث غير قليل حتى نرى أن هذه الوحدة قد استعلت على سياسة العزلة التى لا يزال السياسيون حتى اليوم يأتمون بهديها ، وانهم فى الواقع لفى ظلام .

— ٢ —

بمثل هذه العقلية نعالج الآن قضية المرأة . وقد نسينا الى جانب هذا بعض الحقائق الجلية . كانت المرأة المصرية محجبة فاسفرت . وكانت جاهلة فأخذت تتعلم . وكانت فاقدة الارادة فتحركت ارادتها . وكانت محرومة فأصبحت ممتعة . وكانت أمة فأصبحت سيدة . وكانت محقره فانتزعت لنفسها الاحترام . وكانت آلة مسيرة فأصبحت عاملة وصانعة ومحترفة وذات مهنة . وكانت بعيدة عن حياة المجتمع فأخذت تزاحم الرجل بالمنكب والذراع . وكانت بعيدة عن ميادين الحياة فمضت تغزو تلك الميادين بلباقة الفنان واريحية المدره المنطيق .

يقول الرجعيون ان ذلك الذى أصابت المرأة من أشياء

الحياة انما كان وبالا على أخلاقها وفضائلها • وانما هم يقيسون الأخلاق والفضائل بمقاييسهم القديمة البالية ، ويزنوها بمعاييرهم التى هلهلها الزمن • ثم انهم لا يدركون أن المرأة تقدمت وأنهم هم الذين مازالوا واقفين وان دار بهم فلك الأرض •

أما الكلام فى أخلاق المرأة وفضائلها وما أثر فى هذه الأشياء تقدمها وغزوها لميادين الحياة ، فأمر سوف نعود اليه بعد لأن الكلام فيه يحتاج الى مقدمات تاريخية تنتزع حقائقها من ماضينا القريب • ولكن نكتفى الآن بأن نقرر الواقع الذى لا ينكره ذو عقل فى أن المرأة دلفت الى الحياة وانها فكت عنها اسار القرون الأولى ، فهل تهدم كيان الاجتماع وهل تصدع ركن الحياة وهل استفوت الرذيلة وفاض مدها واستخفت الفضيلة وارتد جزرها ، أم أنها أصبحت شريكا حراً ذا أثر فى الوجود ، وانها أصبحت أربى لأولادها وأعطف على زوجها وأرتب لبيتها ، وانها أضحت أنقى سريرة وألين قيادا ، وأنها لزمت الصراحة وتركت اللؤم والمكر ، وانها تستقبل الحياة كما يستقبلها الأحياء الأحرار ، لا كما كانت تستقبلها وهى السجينة بغير ذنب ، المجرمة بغير جريرة المتهمة فى عفتها وأخلاقها ، وان كانت مثال الطهر وعنوان العفاف ! ! !

ان الذين يقومون اليوم فى وجه النهضة النسوية فى مصر انما يبكون زمنا غبر ودهرا عبر • يبكون زمن الحجاب

والدادات والأغوات (الخصيان) ، زمن الستائر على النوافذ والأبـواب ، زمن التسرى واتخـاذ الحظيـات بالعشرات وبالمئين ، زمن الفسق والفجـور تحت ستـار الفضيـلة والأخلاق ، زمن التعطل والبلادة والجهـل ، زمن الانحلال الأخلاقى والتدهور الفكرى ، زمن الجمود والظلامية .

ذلك الزمن الذى احتـال فيه الرجـال على كل شيء فى الحياة المـدنية . احتالوا على القانون وعلى الشرائع وعلى وصايا الدين ، ونزلوا بجميع ذلك الى حيث أسفت نزعاتهم العجيبة ، والى حيث ارتضت شهواتهم . فما فـكروا فى أن للحياة والمدنية قوانين وان للقلب شرائع وان للأرواح دينا ، ألا بقدر ما يتخذون من هذه الأشياء جميعا ألاعيب وألهيات . وما كانت القوانين والشرائع والأديان الا وسـائل لانتزاع الانسان من أحضان الجهـالة والفقر والفساد . فاذا أهملت القوانين واطرحت الشرائع ونسيت وصـايا الأديان ، فأى شيء يبقى من هـذه الحيـاة الا ذلك المجتمع الذى يريد أن يردنا اليه الرجعيون ؟

— ٣ —

خرجنا من نهضتنا الحديثة مزودين بوراثات وتقـاليد ترتد الى أبعـد العصور . ترتد الى مصر القـديمة وزمن اليونان والرومان ، ثم العصر العربى ، ثم العصر العثمانى . خرجنا من ذلك الزمن الطـويل بلون من ألوان الحيـاة هى

عجيبة من عجائب الزمن ، بل انك لو تخيلت تلك الوراثات كائنا حيا ، لكان هولة من هول الأساطير .

كانت المرأة فى العصر المصرى القديم ملكة تربعت على العرش وزوجة قدست ارادتها واحترمت أمومتها. بل كان لها فى السياسة ضلع كبير اذا كانت من الطبقة العليا . وكانت حرة شاركت الرجل فى البيت والحقل ، ورفعت بسواعدها المستوى الاجتماعى للأمة على قدر ما سمح لها فى ذلك الزمن البعيد . وجاء زمن اليونان ، أو كما ينبغى أن نسميه « العصر المقدونى » اذا أردنا أن ننسب ذلك العصر الى الاسرة التى ملكت مصر بعد الاسكندر ، فكان طابعه مخالفا للطابع المصرى من حيث المركز الذى شغلته المرأة فى الحياة المدنية ، فلم يذكر تاريخ تلك البلاد امرأة واحدة تربعت على عرش أو كان لها فى الاجتماع أثر ، اللهم الا أريطى ابنة أرسطبس الفيلسوف التى حملت مشعل الحكمة عن أبيها وسلمته الى الأخلاف ، وهيپاشيا ابنة أپولونيوس التى نشأت وترعرعت وماتت ضحية التعصب النصرانى فى الاسكندرية . وعقب على ذلك الزمن الرومانى وقد دخلت مصر فى حوزة روما فى عصر بدأ فيه انحدارها ، وان كانت عظمة يوليوس قيصر واغسطوس قيصر ، قد حجبت عوامل الفساد التى دبت فى جسم روما فترة من الزمن . وقد ظلت مصر فى حوزة الرومان سبعة قرون شهدت فيها الفساد يدب

فى أخــلاق الرجل والمرأة ، حتى أن كثيرا من نساء الأباطرة كن خليعات ، وحتى أن الرجال ختموهن بالأقفال ، لشــدة ما استهانت المــرأة الرومانية بعفتها • وجاء العصر العربى . وفيه رفعت المرأة الى مــكانة لم تسم اليها من قبل فاعترف لها بحق الحياة والملك والارث وعينت لها الشريعــة مركزا اجتماعيا لحظ فيه أن المــرأة كائن بشرى حى على قــدر ما سمحت بذلك ظروف الزمان والمكان ، وانها ليست سلعة تباع وتشترى • غير أن وراثة العرب القــديمة ظلت بالرغم من الشريعة الجديدة تؤثر أثرها فى مركز المرأة ، فسلم الرجل لها بكل ما نصت عليه الشريعة من الحقوق المادية ، وحرمها من كل حق معنوى ، فأسرها فى البيوت والقصور ورصد لها العيون الرقباء وحرمها من التعليم ، وتزوج من أربعــة مع تحريم ذلك فى معتقدى ، وتسرى بالكثير من الجــوارى والاماء ، واتخــذ من المرأة الهية تلهى بها ، بل أنزلهــا الى حيث أصبحت تسلية وقت الفــراغ • وما العصر العثمــانى الا صورة من العصر العربى ، زيد اليه أن السادة الجــدد لم يكن لهم لغــة ذات آداب تغلغت فى حيــاة الفرد وفى حياة المجموع شأن العرب ، فنزلت مكانة المرأة عندهم عما كانت عنــد العرب درجات • ذلك بأن الأدب من شــأنه أن يرقق العواطف ويثير أمجــاد النفس ويوحى بالجمال وحب الجمال على اختلاف صوره مادية ومعنوية • ولقــد كان لهذا عند العرب أثر شمل المرأة فيما شمل من أشياء الحياة الاجتماعية •

عندما سقط الحكم العثمانى كانت المرأة على ماصورت ، وكان المجتمع المصرى على ما وصفنا • حيـاة ما دية صرفة ، احتكمت فيها الشهـوة والأنانية ، وســادت فيهـا نزعات القسوة ، وانتشر فيها الفساد والغي ، وتعطل القانون وحلت محـلة الارادات الفردية الاستبدادية ، واحتيل على الشريعة بمختلف الطرق ، ونزلت مـكانة المرأة الى الحضيض ، حتى لقد يروى أن بيت القاضي ، ومايزالقائمابجدرانه حتى الآن ، قد خصص فيه مكان ليباشر فيه الرجال تنفيذ حكم الطاعة عند صـدوره اذا أراد ، اذ فهم من كلمة « الطاعـة » ذلك المعنى الذى تشمئز منه النفوس ، ويشعر المـرأة بأنها تلك السائمة المرذولة • ولا يزال هذا المعنى بعينه قائما فى أذهان أولئك الذين يقولون « خلقت المرأة للبيت » ، وما يفهمون من معنى « البيت » الا ذلك المعنى الذى فهم من « الطاعة » فى بيت القاضي قديما •

حالة مات فيها الحب واستخفى الجمال وسترت الفضيلة وجهها خجلا حتى لا يرى ممتقعا يقطر منـه الأسى والألم • واذا كان شـأن المرأة فى ذلك الزمن قد نزل الى هذا الدرك الأسفل من الحيوانية ، فعلى أى شيء تبقى ؟ على الحب أم على العفـة أم على الفضائل ؟ هنالك يستشرى حب الانتقـام وتنقلب كل الفضائل المعنوية رذائل مادية أساسها الخديعة واللؤم والتفريط • وما كان شأن القصـور فى ذلك الزمن بأعلى شأنا من بيوت الفقراء فى المدن وفى القرى •

— ٤ —

نصف للذين يقولون « المرأة للبيت » حال المرأة فى القصر وفى القرية قبل النهضة الأخيرة ، وابان الاحتلال البريطانى وبعده بفترة طويلة . وان المعاصرين لأصدق من يصف .

عاشت المرأة فى ذلك العصر اما فى قصر منيف واما فى حظيرة شيدة من لبنات الطين . أما الأوساط ، الذين هم لا الى القصور ولا الى الحظائر ، فكانت بيوتهم صورة مصغرة من القصر ، ساد فيها كل ما كان يسود القصور فى ذلك الزمن من ستائر مسترخية على النوافذ وأبواب موصدة على الحريم ، وعيون ورقباء تحصى على المرأة كل صغيرة وكبيرة ، بل وكل حركة ، وان شئت فقل كل خطرة أو كلمة أو اشارة ، بريئة أو غير بريئة ، بل أحيطت المرأة بالجواسيس والأرصاد ، الذين كان لهم أو كان لهن فى تلك القصور أوالبيوت النفوذ الأعلى والكلمة المسموعة والارادة النافذة .

أما الحظائر المشيدة من لبنات الطين فما تزال حتى الآن قائمة فى القرى وفى كثير من احياء المدن ، الى جانب العمائر الحديثة ، فهى مشهد مألوف لأهل هذا الجيل . أما القصر والحريم فقد أصبحا حديثا يروى . وانى لأروى على القارىء بعض ذلك الحديث :

كان القصر فى ذلك الزمن حصنا هو بقية من الأشياء التى املتها العقلية الاقطاعية . كان فى مصر كما كان فى أوربا فى

العصر الاقطاعى ، كتلة منفصلة عن النظام الاجتماعى السائد فى خارج أسـواره • كتلة لها قوانينها الخـاصة وشرائعها الخاصة ، بل لا ابالغ اذا قلت انها كانت دولة صغيرة فى جوف دولة كبيرة • سيده حاكم مطلق التصرف فى الأموال والرقاب، كلا بل هو أمـير لا تمتد اليه يد القانون ولا يأبه اذا أراد بشريعة أو عادة •

تشرف اذا أقدمت على أحد هذه القصور ، وكان أكثرها مقره القـاهرة ، على باب ضخم رصـع خشبه بمسامير من حديد غليظ ، فكان منظره يوحى اليك ، ولو من طريق الوعى الباطن ، بأنه شىء خارج على الطبع وعلى الضرورة • ويمتد من وراء ذلك الباب دهليز طويل مسقوف يسمى « السباط » وعند نهايته باب آخر يسمى فى العـادة « باب الخوخة » ، هو الحـد الفاصل بين دنيا الأحياء ودنيا الأمـوات • كان للأجنبى أن يدخل من الباب الأكبر ويقطع السباط الى باب الخوخة ، حيث يستقبله « الأغا » ليسأل عن شأنه • «والأغا» عند باب الخوخة حاكم بأمره مستبد برأيه • هو الحاكم الأعلى فى هذه الدنيا الصغيرة بعد سيد القصر • لا الفتى من أولاد سيد القصر ولا الفتاة له أولها حق الاقتراب من ذلك الباب السحرى الا بأمره • فاذا تجاوز الفتى سن العاشرة ، واذا وصلت الفتاة سن التاسعة ، فقد يعطى للأول بعض حرية المرور من ذلك الباب ، وأما الثانية فتدخل الحريم ، وهنالك يوصد عليها باب آخر هو باب « الحريم » •

ولا تقف سلطة الأغا أو الخصى عند حق التحكم فى الفتيان والفتيات ، بل ان سلطانه يشمل السيدات جميعا بغير استثناء . أما الخدم والحشم والحاشية ، فهو المتصرف فيها تصرف الحاكم المطلق الذى لا ترد له ارادة ولا ينقض له رأى .

وما ذلك الأغا أو الخصى ؟ عبد خطيف من أهل الجنوب احتزت مذاكيره ليكون صاحب القصر به فى مأمن نزوات نسائه ! ! ! أية عقد نفسية تلك التى تقوم فى ذلك المجتمع الصغير ؟ خصى لاهو رجل ولا هو امرأة ، تعقدت نفسه ذلك التعقد المرهق ، اذ يرى من حوله رجالا كاملى الرجولة ونساء كاملات الأنوثة ، وهو فى وسط ذلك كله كالغلطة الحائرة على لسان البشرية . أما ما تحدث تلك العقد النفسية التى تتولى مثل هذا الانسان ، فقلما يدركها الباحث ادراكا حقا . ولكن ردها السريع فقد ينقلب اما الى تعسف فى استعمال الرخص التى يجيزها له صاحب القصر ، واما الى تستر دنىء على نسائه .

وقد اعلم من عجائز روين لى وشهدن ذلك العصر ، ان الخصيان كثيرا ما كانوا سعاة للبريد يحملون رسائل الحب والغرام الشفوية ، أو يهيئون فرص الوصال بين محب مغرم ووالهة متعطشة الى الحياة .

وما شأن المرأة فى ذلك الحصن المنيع الذى يحرسه خصى هو دونها أرومة ومجدا ، بل انه خادمها والمستبد بها

فى آن واحـد ؟ أية عقد نفسية تقوم فى نفس المرأة فى مثل هذه البيئة ، وأية أحاسيس تتناوبها وأية خيالات تساورها فى الليل وفى النهار ؟ ولا أظن أن مثل هذا قد ينتج خيرا • ولقد كان نتاجه أحد أمرين : اما افراط فى التشهى قد ينقلب ثورة جامحة تبحث لهـا عن منافذ بين نساء القصر أنفسهن ، أو استغراق فى التعبد هو فى حقيقته تعبير صارخ عن آلام نفسية حبيسة •

— ٥ —

ولم يكن أثر الدادة ويقصد بها المربية بأقل شأنا من أثر الأغا أو الخصى • فلئن كان الثانى حارس الباب ، فقد كانت الأولى منشئة النفس والخلق •

والدادة أمة من أهـل الجنوب ، وكن يجلبن من أقاصى السودان اما من كردوفان أو من منابع النيل يخطفهن نخاسون يتجرون بهن •

نساء من الأحراج والأدغال وليس عليهن من سيما المدينة الا اللباس الخارجى ، معدومات الثقافة محرومات من العلم ، شاهدهن على أنهن من بنات حواء انتصـاب القامة لا أكثر ولا أقل • كل ما لدينهن من علم أساطير الشياطين والجن ، وخرافات العقائد الموروثة •

وكان فتيات القصور مقسورات على أن يتلقين عن أولياء كل ما يتزودن به من علم وأدب وأخـلاق • فاذا امتد أفق

صاحب القصر واستطالت خيالاته واتسعت آفاقه عهد بفتاته الى شيخ من حفاظ القرآن يعلمها كيف ترسم اسمها ويلقنها الألفباء ويحفظها بعض آيات من القرآن • فاذا بلغت الثامنة أو التاسعة ، فقد بلغت سن الشك ، الشك فى عفافها وصونها وأخلاقها ، فتحبس بين جدران القصر ، ولا ترى نور الدنيا الا اذا انتهبته خلسا ومن وراء حجاب •

ولقد حدث مرارا أن بعضا من أولياء المربيات ، وبالحرى الاماء المستعبدات ، قد أصبحن سيدات فى تلك القصور • أو كبيرات الحريم ، اذ كان يتزوج من احداهن رب القصر اذا مرض بمرض يطول أمده ، اعتقادا بأن حرارة نساء الجنوب تخرج من الجسم أربعين داء الا داء واحد ، قد يكون هو القاضى على حياته الثمينة ، فتصبح هى وأولادها منه ورثه لذلك القصر وتلك الثروة الطائلة التى يخلفها •

كانت المرأة بين الأغا والدادة فريسة العقد النفسية من ناحية وفريسة الجهل والخرافات وسوء الطبع من ناحية أخرى • ولعمرك كيف تنشأ فتاة فى مثل هذه البيئة وتسلم أخلاقها من العطب أو يكون لها من تجارب الحياة ومعترك العيش ما يرفع خيالاتها الى مستوى المثل العالية والآداب الرفيعة •

تلك هى الصورة التى يتخيلها أولئك الذين يقولون ان المرأة خلقت للبيت ، وذلك هو المثل أو القالب الذى يريدون

أن تصب فيه المرأة الحديثة فى منتصف القرن العشرين • يريدونها مخلوقا مترهل الجسم فاتر النزعات ميت الأحاسيس ممنوع العقل خائر النفس مكبوت العواطف • يريدونها غسالة وطاهية ومرضعة وكناسة وحاملة قمامة من بيوت حضراتهم •

يريدونها حيوانا لايختلف عن بقية عالم الحيوان الا أنها ذات رجلين بدلا من أن تكون ذات أربع • يريدونها «حريما» بالمعنى الذى عرف فى أواسط القرن التاسع عشر فى مصر وفى غير مصر من بلاد الشرق •

— ٦ —

حقيقة واقعة أن المرأة فى ذلك العصر لم تكن انسانا بالمعنى الذى نفهمه من كلمة الانسانية • كانت سائمة تمرح فى سجن واسع الجنبات مع جملة من مثيلاتها كلهن ملك ليمين رجل واحد هو سيد القصر • كان مثلهن كمثل الحيوان : هذا يسمن للذبح ، وتلك ترفه للمتعة الحيوانية والشهوات الجسمية الدنيا • لم يكن للمرأة فى تلك القصور الا هذه الوظيفة الواهية : تأكل وتشرب وتلبس وتنام الليل وقطعا من النهار لتكون متعة للرجل •

قيل بأن قصر يلدز الذى سكنه عبد الحميد فى تركيا القديمة كان يحوى قطعانا من الاماء البيض والسود ورعلانا من الخصيان • وعليه يقاس بقية القصور فى تركيا ومصر والشام والعراق وفارس والهند • نساء لاهن زوجات ولا هن

محررات ، يلدن أولادا لا حق لهم فى الحيـاة ولا أمل لهم فى الدنيا ، فاذا مات صاحب القصر تفرقن أيدى سبا ، ورحن يلتمسن سـيدا غيره يكن له سرارى أو حظيات . فاذا بلغ باحـداهن الكبر انقلبت مستجـدية تستندى الأكف ما لم يعطف عليها بعض المحظوظات من اترابها فيأوينها ثم يوارينها التراب اذا حدث بها حدث الموت .

يسود فى مثل هذا المجتمع نقائض خلقية خسيسة . ذلك بأن استعداد المرأة ينقلب مسرحا لرذائل قد يمكن أن تنقلب مع الحرية والعلم فضائل رفيعة . فالمرأة التى لاهم لها فى هذه الحياة الا أن ترضى شـهوات الرجل ولها فى ارضاء هـذه الشهوات منافسات رسميات ، كيف تنصرف أحاسيسها الى ما هو فاضل أو رفيع من أشياء هـذه الحياة . امرأة تعرف وتوقن بأن حياتها ومستقبلها وقف على أن تفتن فى ارضاء رجل يشاركها فى العمل على الاستئثار به عديد من النساء الأخريات لكل منهن نفس هذه الفكرة ، ويتجه كل همهن الى العمل على أن يكن اليه أقرب والى قلبه أحب ولارضاء شهواته أطوع .

فى مثل هـذه البيئة تموت فى المرأة كل المعانى السامية ويتعطل الفكر عن الامتداد الى تلك الآفاق التى خلق الفكر ليمتد اليها . وكذلك تموت فى الرجل كل صفات الرجولية العالية . يموت فيه الأدب ويموت فيه العقل ، وترفع الخسة والشهوة رأسها الأقرن كأنها أفعى ناقعة السم .

رجل وامرأة : تتوقف حياة هذه على ارضاء شهوة ذاك ، وتنصرف حياة ذاك الى الافتنان بالمتعة بمفاتن هذه . أكانت حياتنا السابقة شيئا غير هذا ؟ وهل ينصرف المعنى المخبوء وراء قول القائلين « خلقت المرأة للبيت » الى أبعد من هذا كثيرا ؟

— ٧ —

فى بعض تلك القصور لم يكن للمرأة مهما سمت مكانتها شرف الأكل على مائدة السيد الكبير ! فاذا تفضل وآكلها تركت المائدة خاوية البطن لأنه من سمو الأدب أن تجوع من أن تأكل فى حضرته الا ما يسد الرمق امعانا فى اظهار الخضوع والانكسار والذلة . كيف لا وهى ملك يمينه ، فان كانت من أولاد الأحرار ، فقد انتقل الى زوجها كل حقوق الأب والأم والولد ، وأصبحت كأنها ملك يمينه . وكيف تستطيع الفرار من ذلك السجن وكيف تستطيع أن تلجأ الى قانون أو شرع ، وذلك أمر من المنكرات الفاحشة فى ذلك الزمن . فان نساء الطبقة العالية ، طبقة القصور ، قد أفهمن أن القانون والشرع كلاهما لغو أمام ارادة الزوج . أما اللجوء اليهما دفعا لظلم أو اقرارا لحق ، فتلك كبيرة الكبائر وطامة الطامات . أتمثل الأسيرة المستعبدة أمام قاض وتدلف الى محكمة وتدلى بحجة أو تقيم برهانا ؟ اذن لقد فسد الخلق وماتت الفضيلة وقبرت العفة وهتك العرض واستبيح الخدر .

أليس هـذا ما تريدون للمرأة أيها القائلون ان المرأة خلقت للبيت ؟ وماذا تعنون بكلمة البيت ، ذلك القدس الذى اتخذتموه كلمة حق أردتم بها باطلا ؟ وما هى الحدود التى تقيمونها لهذا الكلام الذى له خبيء ؟ انما يعسر على هؤلاء أن ينفكوا عما ورثوا من بالى التقاليد والعقائد والأفكار .

***

لم تكن ساكنة الحظيرة بأسعد حالا من ساكنة القصر .

كانت فى الاغلب واحدة من أربع نساء يعشن فى حظيرة واحدة يخيم عليهن الذل والفقر والانكسار . كان السرارى والحظيات من نصيب أصحاب القصور ، وكان التزوج من أكثر من واحدة من نصيب أصحاب الحظائر . غير أن ساكنة الحظيرة لم تكن سجينة . كانت تمرح على الخلجان والترع وتستمتع بضوء الشمس ونسيم الاصائل والأسحار . ولكنها كانت الى جانب هـذا المرأة الجاهلة المستذلة . هى دابة الحمل التى تشارك الدواب عملهم اليومى .

وحقيقة الواقع أن ذيوع عادة التزوج بأكثر من واحدة كانت حاجة اقتصادية . وكذلك الاقلاع عن هذه العادة فى وقتنا الحاضر هى ضرورة اقتصادية . واذن فلم يكن اختفاء هذه الظاهرة راجعا الى استعلاء فى التصور أو رقى فى الفكر أو استنارة فى العقل أو رقة فى العاطفة .

فان مصر وهى البلاد الزراعية منذ أن دار هذا السيار حول الشمس ، قد احتاجت على مدار العصور الى اليد العاملة ، اذ كانت سعادتها ورفاهيتها متوقفة على الزراعة ، والزراعة قبل الانقلاب الاقتصادى فى أوائل القرن العشرين كانت قائمة على قوة العضلات تستغل أينما وجدت فى الحيوان كما فى الانسان . فكانت أكثر أسر الريف رفاهية وسعادة هى أكثرها ثروة حيوانيــة وبشرية . لذلك عمد الرجــال الى التزوج بأكثر من واحدة طلبا للثروة والغنى عن طريق العمل العضلى ، فى الحقــل وفى البيت . فلما وقع الانقــلاب الاقتصادى وزاد التبادل التجارى بين مصر وأمم أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر ، حلت القــدرة الاقتصــادية فى الزراعة مكان القوة العضلية ، وأصبح كبر الأسرات عبئا بعد أن كان عونا ، واضطر الرجل أمام هذا الأمر أن يقلل من عدد الزوجات ومن عدد الأولاد ، لأن ذلك أصبح مجلبة للثروة والرفاهية ، كما أصبح عكسه مجلبة الفقر والتعاسة .

فلا يستنتجن أحد أن اختفاء هذه الخبيثة ، خبيثة التزوج بأكثر من واحدة ، قد كان عن تطور فى الخلق أو العاطفة أو الفكر بل كان تحولا ضروريا اقتضاه انقلاب اقتصادى بالغ الأثر فى حياة الأمة المصرية . وذلك عندى دليل قاطع على أن مركز المرأة الأدبى لم يسم فى عقليتنا ، وان كانت ظواهر الأشياء تدل من هــذه الناحية على شىء من ذلك ، فانما تكون دلالة بالواسطة لا دلالة مباشرة . أما السبب الكامن فانقلاب الحياة من الوضع البدائى فى الريف الى الوضع الاقتصادى الحديث .

وكذلك يكون الحال اذا نظرت الى ظاهرة التسرى فى القصور فان هذه الظاهرة لم تمت الا بموت الاتجار بالرقيق. والحق أننا لم نبذل فى القضاء على هذه التجارة المرذولة أى جهد عملى أو فكرى، بل جاءنا ذلك من غيرنا من الأمم وبخاصة بريطانيا التى قادت الحملة على تجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر حتى قضت عليها قضاء كاملا . وان ذلك لمجدا لبريطانيا خالدا على الدهر .

فلو أن الحالة الاقتصادية قد آرتدت الى ما كانت عليه فى أواخر القرن التاسع عشر لعادت ظاهرة التزوج بأكثر من واحدة تغزو الريف، ولو رجعت تجارة الرقيق لعاد التسرى الى ما كان عليه فى القصور . ولا أعتقد أن هذه العادات قد ماتت آثارها بالفعل فى نفس الرجال وانما هى اتخذت لباسا آخر لا ضرورة الى البحث فيه .

عامة ذا يدل على أن فكرتنا فى المرأة لا تزال من الغرارة بحيث لا نستطيع أن نقول اننا أدركناها ادراكا يحيى فى انفسنا الشعور بأننا نعطل نصف الأمة عن التطلع الى الحياة التى أضفتها الطبيعة على غير المرأة من الأحياء . بل على العكس من ذلك نعمل على أن نجعل نصف الأمة لغوا فى منطق الحياة، ونجاهد المرأة حتى تظل حبيسة بين الجدران التى اسرت فيها الأزمان الطوال . أما الواقع فان المرأة قد أفلتت بالفعل من أسر الرجل، لتصبح له شريكة بالعمل وبالرأى وبالعاطفة. سنة التطور ولن تجد لسنة التطور تبديلا .

الفصل الثاني

ملك المرأة مسألة نظرية ـ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ـ بحث ذلك بالعقل لا بالنقل ـ توزيع العمل وتقسيم الاختصاص فى الحياة الحديثة ـ ما هو تبرج الجاهلية الأولى ـ أصل البغاء شعيرة دينية ـ تبرج الجاهلية الأولى هو غالبا المقصود بهذه الشعيرة ـ تبرج الرجل وتبرج المرأة ـ كبت الاحاسيس خطر يجب اتقاؤه ـ حس الجمال فى حياة الرجل والمرأة ـ مستوى الأخلاق ومركز المرأة فى المجتمع ـ المرأة والدوافع الاجتماعية الحديثة .

— ١ —

جاء الاسلام بشرائع أقرت كثيرا من الحقوق التى أنكرتها الشرائع التى سبقته على المرأة . أقر لها حق الملك وحق الحياة ، وعاملها على أنها كائن عاقل رشيد ، بقدر ما سمحت بذلك مقتضيات الرقى الاجتماعى ، بل ان الاسلام فات فى بعض ما شرع للمرأة من الحقوق تلك المقتضيات بمراحل كبيرة فى بعض الاعتبارات .

لقد كانت المرأة فى شريعة الجاهلية « شيئا » لا « كائنا بشريا » . كانت تقتل خشية الاملاق وكانت تورث مع

ما يورث من المتاع والحطام • لم يعترف بأن لها عقلا أو شعورا أو كينونة مستقلة تمثلها ارادة قائمة بذاتها ، فمحى الاسلام ذلك بشرائعه الرائعة • ولكن ما أثبت الاسلام للمرأة من الحقوق لم يعترف به البغاة الذين ورثوا جاهلية القرون الأولى • لقد اتجروا بالنساء بيعا وشراءا واستغلالا . وحرموهن حق التمتع بما يملكن من حطام الدنيا عقارا كان أو مالا ، وردوهن شيئا من الأشياء • لقد أغروهن على الفسق والفجور ، واسترقوهن واستعبدوهن ، فانتزعن انتزاعا من أحضان الأب والأم والأسرة ليكن خادمات أو سرارى أو حظيات أو مومسات ، وبعن فى الأسواق بيع السوائم أو الأشياء •

لم يقف ذلك عند الزمن الذى عقب الجاهلية فحسب ، بل انه انحدر مع القرون حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، فزالت بعض آثاره وبقى البعض ، وما بقى من ذلك حتى الآن صورة بشعة شنيعة ثقيلة على النفس •

لا نزال حتى الآن نلمس ونشاهد من آثار ذلك ماينبغى أن تضربه الحكومات الضربات القاصمات فان كثيراً من نساء هذه البلاد لا يزلن مسترقات مستعبدات • فاذا مات أب لاحداهن ، وبخاصة اذا كانت من طبقة دنيا ، وورثت عنه أو عن امها أو عن قريب لها شيئا ، فانها انما تملك ماترث اسما لا فعلا • فان لم يكن لها ولد ، أكلت حقوقها جميعا

عنوة واغتصابا ، كأن الاسلام لم يشرع للمرأة وكأن لم يعتبرها كائنا بشريا . يأكل ذلك المال أقرب الأقربين لها . يأكله أخوها أو عمها أو خالها ، ويرى الناس ذلك أنه طبيعي ولا خروج فيه عن دين و شريعة .

وجرت العادة حتى الآن على أن يحرم البنات من ميراث الآباء . فاذا وهب الأب أو أوقف أو باع لأولاده ، خرج بناته بخفي حنين، وخرج أولاده بغنيمة الأسد ، ظلما وعدوانا ، هو أشد ما يروى من قصص الظلم والعدوان عند الله والناس [1] .

فاذا خرجت المرأة بشيء مما ترث ومكنت من أن تملك كما يملك خلق الله سقط عليها الزوج فكفها عن أن تكون حرة التصرف فيما تملك . أليس الرجال قوامون على النساء ، وأليس النساء ناقصات عقلا ودينا ؟

وانما تطبق هذه الأقوال بحرفيتها الآن كما طبقت في الأزمان الأولى . تطبق الآن بنفس العقلية التي سادت من ألف وخمسمائة سنة ، يوم كانت المرأة بمقربة من حدود الجاهلية . كأن العقل لا يتطور والآداب لا تتهذب ، وكأن الانسان قد ظل طوال هذه القرون الكتلة الجامدة التي لا حياة فيها ولا استعداد لها للارتقاء .

على أن هذه العقلية انما ينميها ويزكيها ويقويها أولئك الذين لا يدركون أن الأرض قد دارت من حول الشمس ألفا وخمسمائة مرة ، وأن العقل قد انفلت من أقطار تلك

---

(١) كان ذلك قبل صدور القانون الجديد

العقلية القديمة وأن خطى التطور التى ساقت أمامها حتى الجمادات ، قد ساقت معها الأحياء أيضا ، فغيرت من آدابهم وآرائهم وطرائق حياتهم ، وانها انتقلت بالانسان من ذلك الافق الموحش البغيض الى أفق النور والعرفان والحرية .

— ٢ —

لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام سلطت عليهم ، أو رغبة فى بسط سلطانهم على النساء حبا فى الاستعلاء الكاذب أو التسلطية المجوجة ، من بضعة نصوص أشير بها الى حالات قامت فى عصور غابرة ، سبيلا الى استعباد النساء استعبادا أبديا . لقد حضت المرأة فى ذلك العصر أن تقر فى بيتها وأن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى .

أمران اقتضتهما ظروف وحالات قامت فى ذلك العصر ، وكان ذلك ولا شك فى صالح المجتمع وفى حدود الأدب المرغوب فيها ، فى حدود الحالات الاقتصادية والمعاشية التى اكتنفت الناس اذ ذاك .

أما الحض على أن تقر المرأة فى بيتها فليس معناه أن تسجن فيه وأن تكون فيه رقيقة مسلوبة الحرية مسلوبة من كل معنى من معانى الحياة . ولكن معناه الصحيح أن البيت هو أقدس الأشياء ، وانه السكن والمأوى ، وانه صومعة السعادة والحب ، وانه المصنع الذى تنشأ فيه وحدات الجمعية فى المستقبل .

معناه أن البيت ينبغى أن يكون له المقام الأول والمكانة العليا . معناه أن لا تتسكعن فى الأسواق ، اذا لم يكن لكن حاجة تقضينها ، أو متلمسا تلتمسنه . ونحن نعلم أن حياة المرأة فى الجاهلية كانت حياة الفراغ والملل ، على العكس من حياة المدنية الحاضرة ، فقد زادت واجبات المرأة نحو بيتها وزوجها وأولادها ، كما أن هذه الحياة الحديثة قد أحدثت نوعا من التخصص جديد فيما ينبغى أن يكون من شئون الرجل ، وفيما ينبغى أن يكون من شئون المرأة .

لقد قسمت الاختصاصات فى المدنية الحديثة ، كما وزع العمل بين القائمين به ، حتى أصبح ذلك طبعا ثابتا للحياة الجديدة . فهل فى مستطاع الرجل فى هذه الحياة التى نحياها ، أن يسعى لعيشه ثم يقوم بجميع واجبات المرأة فى خارج البيت ؟ هل فى مستطاعه أن يرعى الأولاد فى روضة الأطفال وأن يشترى لهم ما يلائم من الأطعمة والاكسية ، وأن يقوم بما يجب لهم من رياضة العقل والبدن ؟ هل فى مستطاعه أن ينفق الوقت الذى يكسب فيه رزقه ورزق أولاده فى شراء ما يلزم للبيت من مختلف الحاجات ؟ اذن فكيف يقرن فى بيوتهن وقد فتحت عليهن الحياة الجديدة ألوفا من الواجبات وضروبا من المهمات وعوالم من الضرورات لم تعرف منها المرأة فى العصر القديم شيئا ، ولا عركت منها أمرا .

واذا كانت الحياة نفسها قد تطورت وانقلبت أوضاعها ،

فكيف يتخيل هؤلاء الذين يريدون أن تسجن المرأة فى البيت. أن يوفقوا بين حاجات الحياة الآن ، وبين تلك الخيالات التى تساورهم ؟ أفى مستطاعهم أن يرجعوا الحياة الانسانية الى ما كانت عليه قبـل عشرين قرنا من الزمان ؟ اذا كان ذلك فى مستطاعهم فليفعلوا ، وهنالك تـكون شريعة الآداب قاضية على المرأة أن تقر فى البيت ، وعلى الرجل أن يعيش عيش الغزو والصـيد والقنص ، والا فلسنا نطالبهم بشىء أكثر من أن يدركوا بعضا من حقائق الحياة .

— ٣ —

ان المعنى الذى يستخلصه أصحاب الرجعية من حض المرأة على أن تقر فى البيت ، معنى غامض كل الغموض فى هذا العصر . وبالرغم من ذلك الغمـوض الذى يكتنفه ، فانهم لا يريـدون أن يفسروه حتى تتحـدد المعانى القـائمة فى نفوسهم منه .

أما اذا أرادوا أن تكون المرأة سـجينة البيت ، فكيف يوفقون بين هذا المعنى وبين حاجات الحياة العصرية ؟ واذا ارادوا أن يكون تفسيره أن تقر المرأة فى البيت اذا لم يكن لها ما يشغلها فى خارجه ، فذلك هو الواقع فى حياتنا الحديثة؟ أما أن يتخذ الحض على أن تقر المرأة فى البيت على ظاهره من غير أن يفسر تفسيرا يلائم حاجات الحياة العصرية ، فذلك أمر هو فوت قدرتهم ، بل أن الزمن قد محاه محوا وحطمه

تحطيما ، حتى لقد يظهر استمساكهم به كأنه الرقعة البالية في الثوب الجديد الذى يروقك حسنه .

وكيف يوفقون بين هذا وبين الحض على تعليم المرأة واختلاط الفتيات بالفتيان في دور العلم ؟ بل نسائلهم لماذا يعلمون بناتهم ؟ بل لقد رأيت بعيني رأسي بنات شيخ من أوقر شيوخ الأزهر يلبسن الملابس القصيرة ويركبن الدراجات ويخالطن الشباب وقورات عفيفات ملتزمات حدود الأدب العالي متعظات بالحكمة مؤتمات بالموعظة الحسنة ، فهل كان ذلك عن استمساك بما استمسك به الأوائل ، أم عن خضوع لروح العصر ومقتضيات الحياة ؟ أما أن تتهم ذلك الشيخ الوقور ، بأنه كان يقول باللسان ما ينكره القلب ، فذلك أمر نترك الحكم فيه لأسيادنا الرجعيين .

لقد غزت المرأة كثيرا من ميادين الحياة ، وزاحمت الرجل فيها بالمنكب والذراع . أصبحت المحامي المدره والطبيب النطاسي والمعلم الماهر والفنان الموهوب والمربي العطوف والممرض الحنون والتاجر اللبق ، فكيف نطبق على حياة هذه صبغتها ، صبغة حياة أولية بدائية ، بسيطة التركيب ، لا تعقيد فيها ولا توزيع لاختصاصات العمل ؟ أم نريد أن نهدم كيان المجتمع الجديد استجابة لتصورات هي وليدة عصر باد ، وعهد غبر ؟ وما أثمن قول القائل : « لا تطبعوا أولادكم على أخلاقكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » .

معنى ما تقدم أن المرأة كانت تعيش من قبل على هامش الحياة ، والآن وقد أخذت تعيش فى صميمها وتغزو نواحيها الشتيتة ، فان الرجعيين يحاولون أن ينكروا عليها هذا الحق ... ولماذا ؟ ولأية ضرورة ؟ انهم يعجزون عن الاتيان ببعض الحجة ، لا بحجة كاملة .

ولقد يخيل الى أن انكارهم ذلك الحق ليس براجع الى اقتناع بحقائق ثابتة أو منطق صحيح ، والا فليصوروا لنا مجتمعا حديثا تحرم فيه المرأة حق العمل وحق التفكير وحق الخصام فيما لها من لبانات وحاجات ، كيف يكون ، وكيف يدرج وكيف يضرب فى معارج الفلاح والرقى ؟

يحمل هؤلاء على التمسك بالقديم أشياء عزيزة عليهم . وانها لعزيزة علينا ولا شك . ولكن اذا اختلف ما هو عزيز عليك مع الحق والواقع ، فأيهما أولى بالاعزاز وأيهما أولى بالمحبة ؟

— ٤ —

يقترن مع الحض على أن تقر المرأة فى البيت ، حضها على أن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولا شك فى أن الحض على ذلك مما تأمر به شريعة الآداب العليا التى تمليها على الانسان أثمن مشاعره وأعلى عواطفه المثالية .

ولكن المصيبة التى أصابنا بها أولئك المستغرقين فى النظر فى الحياة بمنظار الحياة القبلية البدائية ، انهم يعتقدون أن كل

تجمل تبدو به المرأة هو تبرج وأنه تبرج الجاهلية الأولى •
ذلك فى حين أن كلمة « التبرج » ليس لها حدود التمرينات الرياضية ، وفى حين أنه لم يصلنا عنهم وصف شامل لتبرج الجاهلية الأولى !!!

والمرأة على هذا النص غير ممنوعة من التبرج ، اللهم الا تبرج الجاهلية الأولى ، وهو ضرب من التبرج لا ندركه الا ظنا ، غـير أن هـذا التبرج له احتمالان : فاما أن يكون المقصود به اشارة عامة الى عدم الخروج بالزينة عن الحدود التى تحفظ على المرأة كمالها ووقارها ، واما أن يكون تعيينا لحالة مادية كانت تمارس فى الجاهلية الأولى •

ولا شك فى أن التبرج بما يهدر كرامة المرأة وحشمتها أمر ممجوج ينبغى الاقلاع عنه ، لأنه فضلا عما فيه من احتقـار لأذواق الناس ، فانه يشير الى معان خفية فى نفسية المرأة ، وهى ليست من معانى الكمال أو الفضيلة فى شىء • هذا اذا قصد بالتبرج فى النص الكريم اشـارة الى عـدم الافراط فى الزينة ، بما يتجاوز حدود العرف المألوف • أما اذا كان المقصود به شيئا ماديا بذاته فغالب الظن ، بل الأرجح تغليبا ، أن المقصود به عادة ألفت فى الأزمان الأولى ، كانت فى نشأتها شعيرة من شعائر الوثنية ، أى شعيرة دينية •

فان البغاء على ما يعرف الآن من تاريخه وتطوره ، قد نشأ فى أوله نشأة دينية ، فكان شعيرة من شعائر التقرب من الآلهة،

وصورة من التضحية يقصد بها العبادة • ثم تقلب فى أدوار آخرها ما نعرف منه فى زماننا هذا ، اذ أصبح نفس ما تعترف به الحكومات وتنظمه وتضع له التشريعات المختلفة ، وتراقبه من نواحيه الاجتماعية والصحية •

والبغاء فى حقيقته استجابة لنداء الجنس • وهـو فضلا عن ذلك له مظاهره النفسية • فان تحول الغرائز يلعب فيه دورا كبيرا • حتى لقـد نرى أن ممارسة هذه المهنة تنسى ممارستها أصلها الطبيعى ، لتحل محله فـكرة الكسب من طريق استفزاز الغرائز الجنسية • وهذا بحث ليس من شأننا هنا أن نمضى فيه ، وكفى بنا أن نقول أن ماقصـد بتبرج الجاهلية الأولى هى هـذه الحالة التى سنشرحها ، أو حالة تقاربها •

ان الحاح الغريزة الجنسية ، كالحاح جميع الغرائز ، مبعث للألم • وقد يتفاوت هذا الالحاح عند الأفراد بحكم الاستعداد الطبيعى واختلاف التكوين • ولما كانت طبيعة الانسـان الخالصة من التعمل تدفعه الى نشدان اللذة والفرار من الألم فقد نزع الانسان الى أن ينشد الشبع والصحة والقـوة ، وأن يفر من الجوع والمرض والضعف ، ولذا كانت المبرات والصدقات مما يتقرب الى الله ، فاطعام المسـكين والفقير وابن السبيل ، وعلاج المريض ونصرة الضعيف مما حضت عليه جميع الأديان زلفى الى بارىء الأشياء • وما هذه الأشياء

فى أصلها الا ابتغاء أن يكفى الغنى والقادر ، الفقير والمعدوم والمسكين ، الحاح غرائز الطبع التى تحدث تلك الآلام التى يفر منها الانسان • ومن هنا نشأ نظام البغاء نشأة دينية ، على اعتقاد أن ارضاء غريزة الجنس هى دفع لألم يباشره الحى ، فهى اذن صدقة يتقرب بها الى الآلهة •

على مفترق الطرق ، وفى السبل الموحشة التى كان يخترقها حمالو المتاجر والمسافرون ، وكانوا يتنقلون عادة جموعا من الرجال بلا نساء ، اتخذ بعض المتعبدات صوامع ليبذلن للمسافرين أنفسهن ولحومهن طردا لالحاح الغريزة الجنسية المؤلمة ، صدقة لوجه الآلهة وتقربا اليهم وتعبدا لهم ، على نفس الصورة التى يتقرب بها مشبع الجوعان ، ومعالج المريض ، ومعز الذليل ، ومؤوى المسكين ، الى خالقه •

وأكاد أومن بأن النص الكريم انما انصب أصلا على هذه الحال أو على حال تقاربها • ومما يدل على ذلك أن النص قد أشار الى تبرج الجاهلية « الأولى » ، أى جاهلية سبقت الجاهلية التى تقدمت الاسلام مباشرة ، وهى التى مورس فيها هذا الضرب من التعبد •

من هنا نجد أن هذا النص قد انصب على حالة معينة كانت قريبة عهد من العرب عند انتشار الاسلام ، فحض على عدم الرجوع اليها لأنها منافية لآداب الدين القيم •

واذا صح ذلك وجب أن لانحتج بهذا النص فى هذا

العصر باعتباره نصا منطبقا على حالة واقعة بالفعل ، والتطرف فى ذلك الى حد القول بأن كل زينة تتزينها المرأة هى تبرج . وانها من تبرج الجاهلية الأولى •

بل ينبغى لنا فى جميع هذه الحالات وما يقاربها من الأشياء التى لا ندركها ادراكا يفصح عن جميع ملابساتها أن نلجأ الى التاريخ والمدونات والروايات المأثورة لنعرف الى أى حالة تشير ، والى أى ملابسة ترمى •

— ٥ —

يحلق الرجل ذقنه ويسوى شاربيه ويفتلهما ، ويمشط لحيته ان كان ذا لحية ، ويصفف شعره تصفيفا يتخذ له مختلف الوسائل ، ويتأنق فى ملبسه وفى وضع طربوشه ، ويلمع حذاءه • فاذا كان شيخا اتخذ من لف عمامته صورة تلائم ملامح وجهه ، واختلاف أشكال العمائم ، هو فى الواقع بقدر اختلاف الوجوه والسمات • كل هذا ويقول الرجل انه لا يتبرج •

بل ان الخيلاء والمشية وطريقة الكلام التى يلازمها الرجل هى فى الواقع أشياء ان أتتها المرأة ولزمتها قيل أنها تتبرج • ذلك بأن التبرج عندى ليس مقصورا على الملبس وحده أو ابداء المحاسن ، بل هو فى الدلال أيضا وفى اللمحة العابرة وفى الابتسامة وفى نبرات الحروف وفى طريقة الأداء • فهل من رجل يخلص من تلك الظواهر ؟ فلماذا يكون هذا حلالا

للرجل حراما على المرأة ، الا أن نكون ظالمين فنخصهن بتبرج الجاهلية الأولى ، أى برذائل تلك الجاهلية ، ونبرىء نحن الرجال أنفسنا من جميع ذلك ؟

الحق الواقع أن ماندعوه تبرجا بالمعنى الحديث ، لا بالمعنى الذى تخيلناه من حياة الجاهلية الأولى ، انما هو أمر طبيعى له أصل ثابت فى الفطرة . ذلك الأصل الذى عبر عنه الاحيائيون بأنه من « الصفات الجنسية الثانوية »[1] . وهى الصفات التى تجذب المرأة للرجل ، وتجذب الرجل للمرأة ، ان جسدية أو معنوية . واذن فلا فرار من التبرج أيها الأسياد .

ان كبت هذه الأحاسيس ، لايقتصر أثره على تحولها من غريزة طبيعية الى رذيلة اصطناعية وهو ما يجب أن نحاربه ونقضى عليه ، بل ان أثره يتعدى الى حس الجمال نفسه ، فيضعفه ويوهنه ، ويحوله من حاسة معنوية الى حاسة جسدية .

ان أول أثر لحس الجمال فى الحى العاقل أن يشعر أنه جميل ، فان لم يكن جميلا اجتهد فى أن يتجامل بمختلف الطرق وشتى الوسائل . وأكثر الرجال هم من الدمامة بحث يحاولون أن يخفوها بالتجمل وانما هم يفعلون ذلك فرارا من ألم الشعور بأنهم بعيدين عن الجمال . بل قد تحايل الرجال

---

(١) Secondary Sexual Characters

على ذلك ، كما تحايل النساء أيضا ، فقالوا ان الجمال جمال الخلق والصفات • بل انحدر بعض النـاس الى القول بأن الجمال فى « الجيب » أى فى المال ، وفى عدد الأوراق المـالية التى يملكها أشمط بين العورات • وهذا ولا شك أحط معنى يدرك من ناحيته الجمال •

ولا شك فى أن للخلق جمالا رفيع المنزلة ، ولكن الطبيعة قد دعت الحى العـاقل أول شىء الى نشدان الجمال الظاهر لا الجمال الخفى • فان هذا الضرب من الجمال مقـدم عند الأحياء على غيره • وهو مقدم عند الرجال وعند النساء معا • فلماذا ننكر على المرأة نفس الفطرة التى نقول أنهـا فضيلة فى الرجل ؟

ان أساس الاختيار عند ربط العلاقات الزوجيـة ، انما هو للجمال الظاهر لا للجمال الخفى • ولهذا لعب الجمـال الظاهر دورا عجيبـا فى الانتخاب الجنسى ، وفى الصفـات الجنسية الثانوية • فامرأة جميلة الوجه سوية التقاطيع ، هى أروج ألف مرة فى سـوق الزواج من أخرى كريهـة المنظر سـامية الأخلاق • ولا شك فى أن ذلك منقصة من مناقص الطبيعة ، ولكن هكذا شاءت الطبيعة أن تكون • كما شاءت أيضا أن يكون لصفة الجمال الظاهر اليد العليا فى الانتخاب الجنسى على مدى قرون طويلة ، فواصـل الجمـال الظاهر شوطه نحو الاكتمال ، وتخلف الجمال الخفى ، جمال الخلق

والصفات النفسية أن يلاحقه ، فتخلف وتخلفت الأخلاق والفضائل .

هذه حقائق لا تنكر . فعفوا أيها السادة الذين يريدون أن يعطلوا الطبيعة بمجرد الكلام .

والجمال الظاهر شيء ملموس مدرك بالحواس . فى حين أن الجمال الخفى شيء مدرك بالتصور . والنوع البشرى فى حقيقته من الكائنات المادية ، يؤمن باللذة والألم اذا كانت آثارها مادية ، ولكنه قلما يؤمن بها اذا كانت أثارهما معنوية .

فهل نريد المرأة أن تخلص من جميع هذه الوراثات القديمة التى نشأت مع الفطرة ، ولا نقف عندها بل نبيح للرجل أن يطلق لهذه الوراثات العنان غير محاسب ولا خجل ، ظنا منا بأننا ننصر الأخلاق ونؤيد الفضائل ، وأن نفرض تلك القيود الحديدية الثقيلة ، ولكن على المرأة وحدها دون الرجل ، عادين ذلك من النزوات اذا صدر عن أنثى ، وانه من الفضائل اذا صدر عن ذكر ، كأن الطبيعة عندما أنشأت الذكر والأنثى قد فصلت بينهما بذلك الصدع البعيد الذى يخيل لبعض السادة أنه طبيعى ، وما هو بطبيعى ، وانما هو من خلق الرءوس التى فرت من حقائق الطبيعة وانزوت تحت الأحجار حتى لاترى ضوء النهار !!!

— ٦ —

يحاول أولئك الرجعيين أن يصدوا التطور عن

سبيله المحتوم . فان من شأن تطور الأشياء ، مادية ومعنوية أن يجعل لكل عصر مستوى خاصا ، ماديا وخلقيا . ويختلف ذلك المستوى باختلاف الجماعات ، ولكن لكل عصر طابع عام هو الذى يعبر عنه بالرأى العام . وهو تعبير ان كان فيه غموض ، فان له حقيقة لاتنكر .

الكلام فى الفضيلة وفى مكارم الأخلاق ، أشياء ينبغى لنا أن نفصل عند بحثها بين ناحيتيها : النظرية والعملية . أما الناحية النظرية فهذه نتركها للبحوث الفلسفية والمثالية . نتركها لأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطيس وكنت وسپينوزا . أما الناحية العملية فهذه ما يجب فى بحث كهذا أن نوليه عنايتنا ونخصه بتفكيرنا .

على أن الناحية النظرية لاتنفصل عن الناحية العملية فى الأخلاق ، من ناحية أننا نتخذ من الناحية النظرية مثالا للمستوى الأعلى للأخلاق ، نقيس عليه المستوى العام لفكرة الفضيلة فى عصر من العصور أو فى جماعة من الجماعات . فاذا وصفنا عصرا بأنه عصر فضيلة ، أو قلنا ان جماعة من الجماعات فيها فضائل ، فانما نقيس الفضيلة هنا على المثال الأعلى الذى ندركه منها . وما المستوى العام غير الدرجة التى تبلغها الفكرة فى الفضيلة قربا أو بعدا من ذلك المثال الأعلى .

على أنه لا ينبغى أن نظن أن ذلك المثال الأعلى ثابت

ثبات الأشياء الجامدة فانه متغير ، تؤثر فيه الظروف والحالات بطرق بعيــدة عن أن تحقق التحقيق الكامل • شأنه فى ذلك شأن جميــع المجردات الفلسفية • وقلما اتفق النــاس فى كل العصور على مثال بعينه هو المثال الأعلى للفضائل والأخلاق • ولكن ذلك كله لا يمنع أن يكون هنالك مثــال لها ، هو المقياس الذى تقاس عليه ، والميزان الذى توزن به الفضائل فى كل عصر •

اذا خضعت الناحية النظرية فى الأخــلاق للفكر المجرد ، فان الناحية العملية منها انما تخضع لضرورات الحياة وظروفها القاسية • ولنضرب لذلك مثلا أو مثالا :

جمعية بشرية عدد أفرادها مئة منها تسع وتسعون فضلاء ورذل واحــد ، أو ثمانون فى المئة أتقياء وعشرون فى المئة فاسقون • هــذه جمعية فاضلة حسنة الأخلاق • لأن الواحد فى النسبة الأولى مضطر أن يكون فاضلا والا نبذته الجمعية ، فهو فاضــل رغم أنفــه • أما العشرون الآخرون فى النسبة الثانية فمضطرون أن يكونوا أتقياء، والا نبذوا وطردوا • ذلك لأن المجموع الأكبر من الجماعة المتصف بصفات متقاربة ، هو الذى يشرع للجمعية ، وله فى هــذه الحال حق الأقوى فى فرض ارادته •

وعلى عكس هذا تماما يكون الحال لو أنك قلبت النسبة ففرضت واحــدا فاضلا يعيش مع تسع وتسعين رذل ، أو

عشرين تقيا يعيشون مع ثمانين فاسقا . لاشك فى أن المستوى العام للفكرة الأخلاقية تكون هى بذاتها ماتدرك الأغلبية منها . وعندى أن هذا هو مايعنى بمستوى الأخلاق .

لا تنظر فى ذلك الى الشرائع ولا الى القوانين ، فهذه يعطلها العرف العام ويقمعها الاتجاه الخلقى فى الجمعية . وهذا الاتجاه من الأشياء التى لا نعرف كيف تتولد ولا نستطيع لهذا التحكم فيها . وانما هو وليد ظروف وحالات اجتماعية تصدر عن أعمق مافى الجمعيات البشرية من الأحاسيس والانفعالات . فللحروب والثورات والانقلابات العامة أثرها الواضح فى خلق تلك الاتجاهات . ولمطلوبات الجسم والروح فيها الأثر الكبير الذى لا ينكر . وكذلك تغير الفكر والعاطفة والعقيدة الأثر الثابت فى خلق هذه المتجهات . وانما تساق الجمعيات البشرية فى سبل لا اختيار لها أن تنساق فيها ، وهى فوق ذلك لاتستطيع أن تمنع وقوعها ، وغاية مافى مستطاعها أن تحولها بعض الشيىء لترضى نزعاتها ، وذلك بتعديل بين القوى الجديدة التى تخلق تلك الاتجاهات وبين ما تحتمل النفس البشرية منها .

لا نستطيع مثلا أن ننكر أن الانقلاب الاقتصادى الحديث قد حور من المتجه الأخلاقى فى الرجل والمرأة ، وان المثل الذى قيست عليه الأخلاق قبل قرن من الزمان ، ليس هو بعينه المثل الذى تقاس به الأخلاق الآن . وجل

مافى الأمر أننا نشعر بأننا تتغير ، وأننا مقسورون على أن تتغير ، واننا فوق ذلك نعتقد أننا تتقدم وأننا تتبع سبيل الرقى .

ولا يعنينا من ذلك أن يكون ذلك التغير قد وقع بمجهود المرأة ، وانما يعنينا من الأمر أنه وقع ، وانه ماثل بالفعل . يعنينا أنه أثر فى مركز المرأة الاجتماعى ودفع بها الى الحياة الصاخبة ، وحملها على أن تعمل وأن تكد وأن تتعلم ، وحفزها الى أن تنشد الاستقلال وأن تكون سيدة نفسها فى حدود الآداب المرعية فى عصرها .

لقد قذف بها فى المعترك رغم أنفها ورغم أنوفنا ، أحببنا ذلك أو كرهناه . ولسوف تضرب المرأة فى سبيلها غير ملوية على شىء ، فان ثورة فكرية قد حصلت فعلا ، وانقلابا جديدا قد لاحت بوادره فى الافق . فعلينا أن ننظم عوامله ونوجهها الى خير الجمعية ، لا أن نقف فى سبيله محاولين أن نغير متجه التيار عن طريقه الطبيعى . فان ذلك قد يجعله ينحدر الى وهاد لا ينتفع به فيها .

أما الذين يقفون الآن فى سبيل حق المرأة فى الانتخاب والتمثيل ، فمثلهم كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

يعلمون البنات ويعرفونهن الحرية والحقوق التى تترتب على الحرية ، ويدفعونهن الى معترك الحياة العملية ، ويأنفون

أن يكن جاهلات خاملات ، ويسوقونهن الى ملاعب الرياضة والى الأسواق ، والى الكليات والمدارس العالية ، ثم يقولون لهن انكن لا تساوين الكناس والزبال والجاهل والأحمق ممن لهم حق الانتخاب والتمثيل .

اليس هـذا بعينه مطلب من اراد أن يبنى هرما يرتكز على قمته لا على قاعدته ؟

الفصل الثالث

المرأة نصف انسان فى الاسلام ــ لقد حان الزمن لان تكون انسانا كاملا ــ تعليم المرأة فى القصور القديمة ــ نتائج ذلك التعليم ــ دخول المرأة ميدان المعرفة الحديثة وأثره فى النهضة ــ التحول الاقتصادى وأثره فى مشكلة المرأة ــ الحرمانات التى نزلت بالمرأة فى الماضى القريب ــ الجاهل والجاهلة والمتعلم والمتعلمة فى حق الانتخاب والتمثيل ــ تأثير المرأة فى الفكرة السياسية وفى خلق الرجل اذا اقتحمت الميدان السياسى .

— ١ —

لم تكن المرأة عند أكثر الشعوب قبل الاسلام شيئا يذكر . كانت الملك الذى يتصرف فيه المالك كيف يشاء ، تباع وتشترى وتورث مع ما يورث الحطام لم يعترف بها بحياة خاصة ، بل ان حياتها كانت بالتبعية لحياة الرجل . فلما جاء الاسلام رفعها وأيدها وأخذ بيدها ، فاعتبرها نصف انسان ، فشهادة امرأتين بشهادة رجل ، ونصيب الرجل فى الميراث بنصيب امرأتين .

ولا شبهة مطلقا فى أن ذلك كان طفرة فى العصر الذى نزلت فيه الشريعة الاسلامية بل اننا لا نبالغ انه كان أكثر من طفرة . لقد كان ثورة على الأوضاع الأولى ، وانقلابا لا نظير

له فى تاريخ البشر • وأى انقلاب يصيب العرف الجماعى أشد من ذلك الانقلاب الذى يجعل المرأة نصف انسان ، وكانت من قبل سلعة لا قيمة لها • سلعة حرمت كل معنى من معانى الوجود • الوجود الذى أضفته الطبيعة على الذوات العاقلة • ألم تحرم حق الحياة فوئدت فى الجاهلية خشية الاملاق ، وخشية العار ؟

كان الرجل فى ذلك العصر هو الانسان الكامل وحده لا شريك له • كما اعتقد الانسان فى العصور الوسطى انه مركز الكون وانه الخلق المختار من الله وان العالم خلق من أجله وان جميع المخلوقات قد سخرت له ولذلك وضعه الله فى وسـط الكون لأنه أشرف ما خلق وأنبل مابرأ ، كذلك اعتقد الرجل انه مركز الخلق البشرى فهو الذى يملك كل شىء ومن أجله خلق كل شىء بما فى ذلك المرأة • اعتقد انه المحور الذى تدور من حوله الانسانية ، وان الانسان محور الكون ، وانه ليس بينه وبين الالوهية الا خطوة قصيرة • الم يدع انه آله يعبد وانه القادر على كل شىء ؟ الم يرفع بصلفه بعض النساء الى رتبة الألوهية كبرا وعتوا ، لأن الآله لا يجب أن يتخذ الا آلهة صاحبة ؟

بهذه العقلية ، وهى عقلية كانت طبيعية ومقبولة فى تلك العصور ، تحكم الرجل فى الدولة والأسرة والمرأة • كان ذلك فى عصر التكثير ، أى تكثير الآلهة • وكان من الطبيعى

أن الرجل الذى يرفع الى رتبة الآلهة وفى مقدوره أن يرفع المرأة بعد أن يتأله الى منزلة الآلهات ، تلابسه فى مثل هذه الحال عقلية هى عجيبة العجائب •

فلما جاء الاسلام وثبت من اصول التوحيد وعزز هذه العقيدة تعزيزا لم يشهده تاريخ الناس من قبل ، عطف الى ناحية المرأة فاعتبرها نصف انسان ، وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذى لا يزال حتى الآن موضع انبهار كل المشترعين • فقد جاء الاسلام بذلك الشرع فى عصر أظلمت فيه جوانب النفس والعقل ، وأسفت النزعات واحتكمت الشهوات وتسودت النزوات ، فكان عليه أن يقضى على جميع ذلك ، وأن يبشر بالشرع الجديد فى أمة عرفت بالجاهلية ، ليكون نبراسا تستضىء به الأمم وتأتم به الشعوب •

ان ما جاء به الاسلام من شرائع فى المرأة ، كان أبلغ ما يمكن أن تصل اليه الطفرة فى عصر هذه صبغته • أما الذين يقولون بأن الاسلام لم يعط المرأة حقها الكامل فمخطئون • لأن الاسلام فى الواقع قد أعطى المرأة أقصى ما يمكن أن تعطى ، بل انه تطرف فى عطائها ، مع اعتبار حاجات الزمان والمكان ، ومؤثرات البيئة والعقلية •

غير أن خمسة غشر قرنا من الزمان كافية فى الواقع لأن تهيىء العقلية الانسانية الى خطوات أخرى فى التشريع للمرأة •

ولقد وضع الاسلام مبادئها الأولية وأقر أسسها فى قواعد عامة ، هى فى الواقع لب الاسلام وروحه . فان الاسلام دين الفطـرة أى دين التطور لا دين الجمود ، لأن الفطرة من خصائصها أن تتطور وتتنشأ ، ومن طبيعتها أن تتغير بتغير الزمن والوضع والحالات المحيطة بالجماعات ، واذن وجب أن ننظر فى كل تشريع ، وبخاصة ما اتصل من ذلك بالمرأة ؛ هذه النظرة الواسعة الشاملة ، نظرة اننا ينبغى أن نشرع لها مؤتمين بالمبادىء لا بالنصوص ، اذا ما بدا فى افق التطور ما يدفعنا الى ذلك احتفاظا بكيان الأمة وتكافلها الاجتماعى . ومن هذه الناحية لا أرى ما يمنع مطلقا من أن ترفع المرأة الى منزلة المساواة بالرجل فى جميع الحقوق المدنية والسياسية : فى الميراث وفى قبول الشهادة وفى العمل وفى الاستقلال الفكرى والاقتصادى ، وبالجملة فى جميع الأشياء التى تكمل بها انسانيتها . ذلك بأنها انسان .

— ٢ —

نقدم بهذا لأن الكلام فى طبيعة العصر الحديث يقتضيه ، ولأن التطور الاجتماعى قد وصل حدا أصبح معه التفكير فى أمر المرأة من هذه الزاوية ضرورى بل طبيعى .

***

موقفنا الآن من مشكلة المرأة ، هو بعينه موقف غيرنا من الشعوب التى سبقتنا فى المدنية الحديثة فى القرن

التاسع عشر . لقد بدأت هذه المشكلة تأخذ شكلا بين الوضوح فى أواسط القرن الفارط ، ولكنها كانت قد أخذت تحتل مكانا ساميا فى عقول المفكرين فى نهاية القرن الثامن عشر .

غير انه لا ينبغى لنا أن نغفل عن أن مشكلة المرأة عند غيرنا من أمم الشمال ، كانت نتاجا للتحول الاقتصادى الحديث ، ولا شك فى اننا مقبلون على عصر أشبه بالعصر الذى مرت به الأمم الأوروبية فى أول نهضتنا الصناعية وفى بداية عصرها الانتاجى .

لقد أخذنا نشعر جميعا بأن من حولنا جلبة تسمى مشكلة المرأة ، وبدأنا نتحسس أسباب هذه الجلبة ونبحث فى نتائجها واحتمالاتها منذ ثلاث عقود خلون من الزمان . ولكن احساسنا بعظم المشكلة أخذ يزداد ويضخم بعد أن دلفنا فى سبيل الأخذ بأسباب المدنية الانتاجية التى سيكون للآلة والعامل فيها الشأن الأعظم . استغفر الله : بل أقول العامل والعاملة والأجير والأجيرة .

لقد اتبع أكثر رجالنا وبخاصة فى الريف ، وهم فى العادة اولئك الذين غلبت عليهم العواطف البدائية واحتكمت فى مشاعرهم وعقولهم العادات القبلية الاولى ، اهواءهم فى توريث أولادهم من بعدهم ، فجرى أكثرهم على أن يحتال على الشرائع حينا ، ويتسلح برخصها حينا آخر فى حرمان البنات من حقهم فيما يرثون عنه . فمنهم من ترك للبنات

قسطا من الثروة ولكن مقترا عليهن فيه ، ومنهم من حرمهن حرمانا كليا ، معتديا بذلك على الشرع والعرف والآداب العامة . ذلك الى جانب ما كابد بنات الاسر ، وبخاصة الرفيعة، من ضروب الحرمانات الأخرى ، تلك الحرمانات التى كان أهونها حرمانهن من حقوقهن فى الميراث . فان البنت التى تحرم من الميراث بارادة أبيها ، تخرج الى الحياة وهى تعلم انها فقيرة معدمة ، أما التى يختار الله أباها قبل أن يتصرف فى ماله بالتى هى اسوأ ، فترث عنه حقها الشرعى ، ثم تحرم من الانتفاع به كل حياتها ، وقد تموت قبل أن تشعر أن لها ملكا شرعيا ، يكون حرمانها أبلغ فى الايذاء من الحرمان الأول. لا سيما اذا علمنا ان الذى يحرمها من ذلك أشقاء أو أعمام أو اخوال يأنفون أن يكون لها ملك يرتع فى بحبوحته أولاد رجل غريب ، كأنما هؤلاء الأولاد قد أتى بهم الرجل الغريب من سوق البهائم ، ولم يتكونوا فى رحمها .

كان هذا الوضع مما يحتمل بعض الشيء فى زمان نزلت فيه قيمة الثروة الزراعية ولم يكن له فى الحياة الاقتصادية هذه المنزلة التي تشهدها الآن . ولذلك نجد أن القانون قد حمى أولاد المتوفين قبل آبائهم ، فأقر لهم حقهم فى الميراث كما لو كانوا قد توفوا بعد المورث . وهذا ولا شك من الظواهر الجلية على أثر العامل الاقتصادي فى الحياة الاجتماعية الحديثة . كما أنى لا أظن أن رجلا مثقفا من أهل هذا الجيل

يستطيع أن يقدم على ما فعل أبوه أو جده فيحرم بناته من ميراثه ، الا أن يكون قد فقد كل احساس بالمسئولية .

— ٣ —

أما عهدنا بتعليم البنات فقريب . ولا شك فى أننا أخذنا نفكر بجد فى تعليمهن قبيل الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ .

كانت سيداتنا الى ذلك العهد محجبات غير سافرات ، وكن فى حالة تشبه الأسر . اللهم الا القرويات اللواتى كن بحكم حياتهن محتاجات الى العمل فى الحقول وارتياد الأسواق . ولا مرية فى أن هذا الوضع قد عاق تعليم البنت ووقف حائلا دون تثقيفها . فالسيدات المحجبات من الأسر الكبيرة كن يأنفن أن تخرج البنت الى المدرسة وان رغبن فى تعليمها ، والقرويات السافرات كن لا يدركن معنى للتعليم .

شاع قبل ذلك ضرب من تعليم البنت كان أسوأ من الجهل نتائج ، وأنكى منه فى شحن العقل بشتى التوافه والخرافات . كان أصحاب البيوت الكبيرة ، وهى بيوت ورثت نظامها وتقاليدها فى الغالب من بيوت الأمراء المماليك ، يفضلون أن تعرف البنت القراءة والكتابة ، فيعهدوا بهن الى الشيوخ الذين يتلون القرآن فى البيوت ليعلموهن « العلم » . وكان هؤلاء الشيوخ يختارون فى سن الكهولة أو الشيخوخة ، ولا يعرفون من شئون الدنيا شىء الا فك الخط وصم القرآن. أما معلوماتهم العامه فلا تتعدى لفيفا من الخرافات والأساطير

تلقوها عن شيوخ سبقوهم الى جنات النعيم . فكانت البنت، وهى فى عنفوان انوثتها واستعدادها لتقبل الحياة باسمة فينانة ، تنشأ غارقة فى ثلج المشيب والخرافات . وان ذلك لمن أعظم ما ينتهى بالحياة الى العقد النفسية التى يصعب على الانسان مهما قويت ارادته أن يتخلص من آثارها ، فما بالك اذا نشأت فى نفسية بنت ضعيفة لا تعرف من الحياة الا أبواب القصر المغلقة والخصيان والجوارى السود من متوحشات أهل الجنوب الأقصى والحبشة والكونغو ، والشيخ المخرف الذى كان الناس يعتقدون أنه وسيلتهم الى الله ... أو الى جهنم . فان منهم من كان الى جهنم أقرب شىء .

أما طريقة الانتقال من تلك الحال الى ما نراه اليوم من تهافت البنت على التعليم وتهافت أهل البنت على تعليمها ، فقد كانت بخطوات بطيئة ثم تسارعت . فان اخواننا المصريين من غير المسلمين ، كانوا أول من توجه الى تعليم البنت فى المدارس الأجنبية ، فظهر فى المجتمع منهن زهرات أخذ عبيرها يفوح حتى عم أريجه . ولقد أخذ أهل البيوت الكبرى من المسلمين يقدمون على تعليم البنت فى المدارس الأجنبية وفى مدرسة أو مدرستين انشئتا بعد الاحتلال البريطانى ، وكانت المدرسة السنية واحدة منهما .

وكان التعليم حتى ذلك الطور زخرفا من زخارف الحياة، لاسلاحا تتسلح به البنت لتكافح به فى الحياة . فان فكرة كفاح

المرأة لم تقم فى الأذهان الا منذ عهد قريب جدا ، أى منذ أن دخلت البنت مدرسة الطب ثم الجامعة بكلياتها الشتيتة .

يقولون أن المرأة لم تطالب بحقها فى الحياة الاقتصادية والسياسـية ، ويتخذون ذلك حجة عليها . ولا أدرى لماذا تطالب والزمن يسابقها الى الارتقـاء ، ويدفع بها دفعا الى حياة العمل والكفاح . وتلك حال البنت منذ نصف قرن ، وهذا حالها اليوم . لقد انتقلت من سجينة فى القصر أو البيت الى منصة القضاء والى حجرة الجراحة والى حانوت البيع والى المؤسسة التجارية ، وبالجملة خرجت الى الحياة بعد الموت ، واستشمت نسيم الحرية بعد الاستعباد ، وتفتحت أمامها أبواب الدنيا . ولماذا تستصرخ وهى التى سجلت أعظم انتصار شهدته مصر ، بل شهده الشرق كله فى نصف قرن ؟ ومن كانت هذه حالها أيكثر علينا أن نعترف بأن لها حقا يقال له الحق السياسى ؟

— ٤ —

اذا كانت الغاية من كل نظام سياسى حر ، هو الحصول على مصوتين مستقلين فى الرأى ، فلا شك مطلقا فى أن للمرأة المتعلمة حقا لا ينكر فى أن يكون لها نصيبا من اقامة دعائم ذلك النظام !!!

ولا مشاحة فى أنه من أكبر الظلم أن نفتح للمرأة معاهد التعليم والثقافة ونصلها بالمعرفة العامة ، ونجعلها تتصل بالعالم

من طريق الاذاعة والصحف ، ثم ننكر عليها ذلك الحق الذى نضفيه على ملايين من الرجال لا يعرفون من الدنيا الا الدائرة الضيقة التى يعيشون فيها ، وهم على جهل تام بكل ما يؤهل بهم لأن يكونوا مصوتين مستقلين فى الرأى أو ذوى رأى على الاطلاق . اننا بهذا الوضع الغريب انما نضعف من نظامنا النيابى وننكر على الديمقراطية انها تعمل للمساواة لا للتفاضل . اننا بذلك نفهم الديمقراطية فهما عكسيا . وما السبب فى ذلك الا تقليدا جرينا عليه . تقليد أن المرأة نصف انسان . ولكنا من حيث حق الانتخاب والتمثيل لم نسمح لها بذلك الشرف الذى أضفاه عليها ذلك التقليد ، فلم نجعل صوت امرأتين بصوت رجل واحد ، ولم نجعل نائبتين مقام نائب واحد .

ولعمرى كيف يستقيم الأمر وكيف نكون أمناء فى تفكيرنا اذا نحن لم نعترف بأن الرجل المتعلم مساو للمرأة المتعلمة من حيث انه مادة غير صالحة للتصويت فى الانتخابات العامة، واذا نحن لم نعترف بأن الرجل المتعلم مساو للمرأة المتعلمة فى ذلك . أما اذا كان الجهل مانعا من مباشرة هـذا الحق السياسى ، اذن فلننكره على المرأة والرجـل ، اذا تساويا فى الجهل ، واذا كان التعلم رخصة لمباشرة هذا الحق ، اذن فلنضفه عليهما معا اذا تساويا فى درجة خاصـة من العلم . ولكننا لا نفعل ذلك . نفكر نحن الرجال بمنطق مصالحنا ونزواتنا وخيلائنا ، فنعطى الجاهل حق الانتخاب وننكره

اعتقادنا ان أكثر الناخبين غير مستقيلين فى الرأى ، ونمنع هذا
على الجاهلة ، مع تساويهما فى أنهما مادة غير صالحة ، ومع

تنبيه : يقرأ السطر الثانى من صحيفة ١٤٥ قبل السطر الأول

يخجلون شيئا ما .

قليلا ما تعرف حمرة الخجل وجوه الكثير من رجالنا ، ولأن الكثيرين منا يأنفون من أن تعلو جباههم حمرة الخجل، لانود أن ندخل ذلك العنصر الذى سوف يعرفنا ماهى حمرة الخجل فى تكويننا السياسى .

وليست هذه البلاد مستعمرة للرجال تدار بمحض ارادتهم وتوزن أقدارها بمقتضى اهوائهم . وليس نساء هذه البلاد رقيقات مستعبدات ، ولسن اماء اشتريناهن بالمال . بل هن محررات بحكم الطبع وحكم القانون . هن كائنات كاملات الحرية كاملات الانسانية ، كاملات الحقوق . أما أن نقول عكس ذلك ، ثم ندعى اننا شعب ديمقراطى حر يعيش فى أرض حرة ، فان ذلك يكون أبعد شيء عن منطق الواقع .

ان الذين ينكرون على المرأة حقوقها السياسية، لايصدرون فيما يقولون عن اقتناع أو رأى صحيح ، وانما هم ينزعون هذه النزعة دفاعا عن مصالح خاصة يحاولون الاستئثار بها فهم يمنعون عنصر المرأة عن الدخول فى معترك السياسة ، ويحاربون هذا النظام بأظافرهم وأسنانهم ، لأن هذا العنصر

اذا دخل ميدان السياسة فسوف يكون اداة تقلم من أظافرهم، وتمنعهم عن القضم بأسنانهم • انهم ينكرون هذا الحق على المرأة لأنهم سوف يخجلون ، ولقد أصبح الخجل مرضا حادا في بيئاتنا السياسية ، نطلب منه الفرار • أصبحنا نشعر أننا بالفرار من الخجل أحق منا بالفرار من سم الأساود والدين الفادح والحريق المخوف والداء العياء •

الفصل الرابع

النظام التمثيلى والغاية من الحكومة ـ الحكم الديمقراطى بغير أن تباشر المرأة حقوقها السياسية يكون نظاما ناقصا ـ بين المبدأ والتطبيق ـ تبدل الحياة من البيت الى المصنع ـ الحياة وناحيتها الاقتصادية الحديثة ـ تصنيع هذه البلاد وما يترتب عليه من النتائج ـ الفلاح هو المنتج والفلاحة هى المونة ـ حاجتنا الى الصناعات الزراعية ضرورة قصوى .

— ١ —

للنظام التمثيلى فى الحكم ، والغاية من حكومة قائمة على هذا النظام ، مبدآن أساسيان : الأول العمل على اسعاد الجمعية بأوسع معنى ، والجمعية لفيف من رجال ونساء . والثانى : أن هذا النظام مادام قائما على أساس الاعتراف بالحقوق السياسية لجميع أفراد الجمعية ، فان حرمان طوائف معينة من الأمة من مباشرة هذه الحقوق معناه الصريح انتقاص النظام التمثيلى فى الحكم ، والابتعاد عن الغاية التى تتوخاها من حكومة قائمة على هذا النظام .

واذن يكون حرمان نصف الأمة أى النساء من مباشرة الحقوق السياسية ، معناه أن النظام التمثيلى فى الحكم غير مستوف ، وان الغاية من قيام حكومة مرتكزة على هذا النظام غير محققة بالفعل .

لا أريد أن اناقش الذين يقولون ان فئة أو فئات من الأمة غير جديرة بمباشرة تلك الحقوق • فقد يكون فى كلامهم على ظاهره شيء من الحق • وانما أقول اننا نعيش فى ظل نظام ديمقراطى أساسه الحكم التمثيلى الحر ، لا أكثر من هذا ولا أقل • واننا مادمنا نعيش فى نظام يضفى علينا هذه الحقوق التى هى لب ذلك النظام ، فليس لأحد أن يقول ان تعطيل جزء من ذلك النظام هو لخير الجمعية ، الا وتلازمه الحجة بأن ذلك النظام الذى نعيش فى كنفه غير ملائم لمزاج الأمة •

هم يريدون أن يقولوا ذلك ولكنهم لا يجدون الشجاعة التى تحملهم على المصارحة به • ولو أنهم قالوا ذلك صراحة اذن لكانوا الى الاصلاح أقرب • لأنهم بذلك يواجهون الحقائق التى يعتقدون بصحتها ولا يتوارون من مجابهة الرأى العام بما يعتقدون • أما أن نقول علانية أننا ديمقراطيون ولنا دستور قائم وقانون أساسي هو روح ذلك النظام ثم ننكر على فئة من الأمة حقها الصريح فى مباشرة الحقوق التى تترتب عليه ، فان هذا لا يستقيم مع المنطق ، كما أنه لا يستقيم مع الواقع •

آية ذلك أن بعض المفكرين ، وهم من أولئك الذين نافحوا عن النظام الدستورى وكافحوا فى سبيله ، يقولون انهم يوافقون على أن تباشر المرأة الحقوق السياسية ، ولكن من ناحية المبدأ ، لا من ناحية العمل • ومعنى هذا أنهم

يريدون أن يقولوا ولكن بطريق غير مباشر ، ان الاعتراف بمدأ التمتع بالحقوق السياسية شيء ، وتطبيق ذلك شيء آخر • وبعبارة أوضح ان فئة أو فئات من الأمة يمكن الاعتراف بمبدأ أن لها حقا سياسيا ، ولكن الاعتراف بذلك المبدأ لا ينبغي أن يترتب عليه أية تنيجة عملية • وما ذلك القول الا بمثابة أن تقول لانسان انك حر من حيث المبدأ ، ولكن ليس لك أن تتعدى جدران هذه الحجرة • لك أن تتمتع بالمبدأ ، أما أن تباشر الحقوق المترتبة عليه ، فلا اختيار لك فيه ، لأنك لاتزال قاصرا عن استعمال ذلك الحق بما تستقيم معه أمور الدولة • ذلك فى حين أن شئون الدولة انما يخضع تدبيرها لقانون دستورى ، لم يفرق مطلقا بين ما يقال له « مبدأ » وبين مباشرة الحقوق المترتبة عليه •

تملى علينا هذه الآراء عقلية مضطربة • وما السبب فى ذلك الاضطراب الا اننا نخشى أن نطبق المبادىء أو أننا نحاول أن نتنكب طريق تطبيق المبادىء ، انقيادا وراء أوهام ، أو طلبا لغايات غير مستبانة تماما • ولقد كاد يجرنا هذا الاضطراب الى ما يشبه عدم الاستقرار • وأى قلق يصيب النفس والفكر أنكى من حالة تريد فيها ولا تريد • تريد أن تكون حرا ، وتخشى أن تقتلك الحرية !!!

أما سبيل الرشد فهو أن نؤمن بالحرية ونطبق مبادئها بجرأة وحماس • سبيل الرشد أن نقدس المبادىء التى يقوم

عليها نظام الحكم الحر ونصونها ونرعاها ، ونضفيها جملة على كل فرد من أفراد الأمة ، ونترك للزمن أن يكيفها . فان جسم المجتمع فيه المرونة وفيه هذه القابلية . قابلية تعديل البيئة بما يلائم مصالحه ، وفيه القدرة على أن يضمن الخير الأعظم للعدد الأعظم من الأفراد . ومهما لاح فى الخطوات التى يسلكها المجتمع الى هذه الغاية من تناف مع السلوك المستقيم ، فالنتيجة أن يحصل الناس فى النهاية على أصلح صورة من النظـام تلائم مؤهلاتهم ومستواهم باعتبارهم جمعية بشرية .

من حيث ذلك نقول ان حرمان المرأة من مباشرة حقها السياسى ، بصـورة أو بأخرى ، انتقاص لمبـدأ التمثيل الديمقراطى ، واعتداء على حق فريق من الأمة ، هو فى الواقع نصف الأمة جميعا ، وهو حق اعترف به الدستور من حيث المبدأ بنصوص صريحة لا تقبل الجدل . وانما اعتدى على ذلك الحق قانون الانتخاب . وهو قانون تنظيمى لا قانون أساسى . فكأننا بذلك قد قبلنا أو تغافلنا عن أن القـانون التنظيمى قد اعتدى على ما أقر القانون الأساسى . وهذا وضع لا ينبغى أن تصبر عليه أمة حرة تعيش فى ظل نظام ديمقراطى .

— ٢ —

ان الشعور السائد اليوم ، شعور ان المرأة ينبغى أن تباشر الحق السياسى ، والصيحة التى يرن صداها فى آذاننا

منادية بذلك ، انما هى نتيجة لمقدمات كثيرة ، أخصها ما قطعنا من أشواط فى التطور الاقتصادى ، وما ننتظر أن يكتنفنا فى المستقبل القريب من مشاكل ذلك التطور . أضف الى ذلك تنبه الوعى القومى واعتناق الفكرة الديمقراطية وذيوع النزعة الحرة فى السياسة والأدب .

من الانقلابات الصامتة التى كان لها من الأثر اضعاف ما لكثير من الانقلابات الصاخبة ، ذاك الذى أصاب الحياة الأوروبية فى أثناء القرن التاسع عشر . فان اختراع الآلة البخارية والنول الآلى ، وما يترتب على ذلك من القضاء على كثير من الصناعات المنزلية ، وانتقال العمل من البيت الى المصنع ، وتأثر الحياة القروية والأسرية بالخروج من حدود القرية والبيت الى رحاب المدن ومؤسسات الانتاج الكبرى، كان من الانقلابات التى تمت بغير ثورات جامحة أو تدميرات حاطمة . ولكن كان فيه بالرغم من ذلك من الآثار الانقلابية ما تقف دونه الثورات الكبرى فى تاريخ الانسانية . تقصر عن آثاره الحروب الدينية والثورة الفرنسية واستقلال أمريكا فى حرب التحرير .

ولم يقتصر أثر ذلك الانقلاب على الناحية الاقتصادية من الحياة ، بل تعدى تلك الدائرة الى الاخلاق والى الفكر والى العلاقات الأسرية والزوجية فأقامها على أسس جديدة

أدنى الى الاستقلال والكفاح . فقد أصبح على المرأة أن تعمل لتعوض على بيتها واسرتها ما فقدت بموت الصناعات المنزلية التى كانت تؤدى قسطا كبيرا من نفقات الاسرة وتربية الأولاد . وكذلك تأثرت الزراعة وقل انتاجها ، لأن اليد التى كانت تعمل فيها انتقلت أكثر قوتها الى المعامل والمصانع ، واستغرق ذلك كل وقت الفراغ الذى كان ينفقه أعضاء الاسرة فى الانتاج الصناعى المنزلى . ولقد نزل بالزراعة من جراء ذلك ضرر بالغ ، قبل أن تحل الآلة فى المزرعة لتعوض ما فقدت المزرعة من جهد العضلات البشرية . وكان من الضرورى أن تنشأ حالات متهاوشة متشابكة تقتضى وضع تشريعات تنظم عمل العامل والعاملة فى المصنع ، وتحدد علاقاتهما مع صاحب العمل ، وأخذ البحر الراكد يضطرب وتلتطم أمواجه حتى طغى مده فى أوائل القرن العشرين .

ولا شك فى اننا مقبلون على حال تشبه هذه الحال . على اننا اذا كنا لا نشعر بآثار الانقلاب الذى نحن مقبلون عليه فذلك لأننا لم نرتم بعد فى غمراته . فما زلنا على أبواب الحياة الانتاجية ، التى ثبت وجودها الفعلى بانتشار المعامل والمصانع فى المدن وفى الريف . ولا شك فى أن العمل على تصنيع هذه البلاد والجرى وراء تحقيق هذه الغاية من غير أن نستعد لملاقاة المشكلات التى تترتب عليه سيعرض حياتنا الاجتماعية الى اخطار شديدة عاتية ، نستطيع أن نكسر من حدتها ونستقوى على آثارها الخبيثة ونجنى ثمراتها

الطيبة بتنظيم خطى ذلك الانقلاب الصناعى الذى نحن مقبلون عليه وبسن الشرائع التى تجعله ملائما لحالاتنا الاجتماعية والاقتصادية • ولا يتأتى لنا ذلك الا بأن ننظر فى الأشياء نظرة واسعة شاملة فنحتاط لكل احتمال وندرس كل حالة درسا مستقيما مع ما يقتضى الصالح العام لا الصالح الخاص • واذن وجب أن يسمع صوت الأمة جميعا فى سن هذه القوانين • ينبغى أن يسمع أول ما يسمع صوت العامل والعاملة وصوت الزارع والزارعة ، لأن بين العامل والعاملة تنافر وبين الزارع والزارعة احتكاك فى تحديد الاجور ونوع العمل ، وبخاصة فى رغبة الرجل فى أن تظل المرأة فى حاجة اليه ، وسعيه لأن يفقدها استقلالها الاقتصادى لتظل دائما تلك العجينة اللينة التى تستغل بأهون ما يتطلب استغلالها من جهد •

ستنشأ فى بلادنا المصانع الضخمة الفخمة ، وتنتشر فى طول البلاد وعرضها ، وسوف يكون لانتشارها مشكلة تقوم بين الصناع والزراع • فان اليد التى تدخل المصنع أو المعمل ، لاشك فى أنها سوف تؤخذ من الحقل ومن المزرعة • وسوف لا يقتصر ذلك على الرجال دون النساء ، فان المرأة سوف تزاحم الرجل بالمنكب والذراع ، وسوف يقوم بينهما تنافس ومضاربة على تحديد الأجور وقيمة العمل • ولا مرية فى أن من صالح صاحب العمل أن يحاول استغلال أكبر جهد بأقل

أجر ، نشدانا لما يدر عليه هـذا الوضع من الربح الأكبر بالاتفاق الأصغر . ولقد كان لقيام مثل هذه الحالات نتائج بالغة منتهى السوء فى البلاد التى شهدت قبلنا مثل هـذا الانقلاب ، ولو لم يتداركها المصلحون ورجال الدولة بالتنظيم وسن القوانين التى تحدد علاقات العامل والعاملة وصاحب العمل ، لما بقى فى أوربا الآن من حضارتها التى تتيه بها على العالم قائم ولا صعيد .

كان لذلك الانقلاب آثار على الحياة وعلى الفكر . ولكن لا شك فى أن أثره كان فى المرأة اضعاف أثره فى الرجل . كان أثره فى عاداتها ومصالحها ولبانات حياتها بالغا كبيرا . لقد أثر فى طريقة حياتها وفى أخلاقها وفى نظرتها الى الحياة . لقد ارتجت من آثاره حياة الأسرة وتزلزلت قواعدها القديمة ، فلاح فى عصر من العصور أن الأسرة قد انفكت عراها وحان حينها .

ولا ننسى الى جانب هذا ان طبقة الزراع والاجراء هم صلب المجتمع وفقاره . فاذا لم تجد هذه الطبقة ما يكفى حاجتها من العمل والرزق ، كان ذلك أعطب ما يصيب آلة الحياة الاجتماعية من اختلال . ولا شك فى أن المصنع وصاحب العمل من أشد العوامل أثرا فى زعزعة حياة العامل والأجير ، إذا لم تنظم العلاقات بتشريعات ترعى أول ما ترعى الاحتفاظ بحالة من التوازن الاجتماعى .

ولقد ظلت مصر طوال الأعصر معتمدة على الزراعة وحدها فكانت مهددة دائما بأن تذل اذا أصاب الزراعة آفة أو تشريق، وتنتعش وتقوى وتشمخ اذا نضرت الزراعة وأتت ثمراتها الكبرى • معنى ذلك اننا لم نعتمد فى حياتنا على صناعة أو صناعات تعوض علينا عند الحاجة وفى سنى القلة الزراعية، ما يجعل حياتنا محتفظة بشىء من التوازن الاجتماعى • فمن قلة الى كثرة ، ومن كثرة الى قلة • ومن فقر مدقع الى غنى فاحش ، ومن غنى فاحش الى خصاصة قاتلة • فاذا أقبلنا اليوم على انقلاب صناعى نقيمه الى جانب الزراعة ، فانما نقبل على عمل تدفعنا اليه حاجات الحياة والعيش • ولكن لا بد من تنظيم ذلك الانقلاب بحيث لا يطغى على المصدر الأول للثروة القومية •

أما اذا ظننا بأن ذلك الانقلاب سيقوم على سواعد الرجال وحدهم فقد ضللنا الطريق • ستدخل المرأة فى هذا الانقلاب من نفس الباب الذى سيدخل منه الرجل ، ان طوعا أو كرها • وستقوم بذلك المشكلات الاجتماعية وتسن القوانين التى تنظم العلاقات بين الأفراد وبين شطرى الأمة ، فهل يحدث ذلك بمحض ارادة الرجل ولا يسمع فيه للمرأة صوت أو يصغى لشكاة ؟

— ٣ —

من الأخطاء الشنيعة التى تدل بوادر الأحوال على أننا مقدمون عليها اننا نعمل الآن على تصنيع هذه البلاد من غير

أن ننظم ذلك العمل تنظيما يحفظ على الزراعة وهى المصدر الأول للثروة القومية ، مركزها الطبيعى فى حياتنا • نعمل على اقامة المصانع التى تستغل بعض الانتاج الزراعى كالقطن مثلا ، ولا نشجع الصناعات الزراعية الصرفة التى يمكن للزارع أن يستغل ثمراتها فى جوانب مزرعته • نشجع صناعات الغزل والنسج والحديد والصناعات الثقيلة ، ولا نفكر فى ترويج الصناعات الزراعية الصغيرة لتجفيف اللحوم وحفظ الخضر وتربية الدواجن أو انتاج عسل النحل، ومصر باعتراف الجميع يمكن أن تصبح محطة عالمية لهذه الصناعة • أما اذا أردنا أن ننظم تصنيع هذه البلاد فيجب أن نعنى الى جانب الصناعات الثقيلة ، بالصناعات الزراعية التى يمكن للزارع أن يمارسها فى حدود مزرعته ، حتى يستطيع أن يعتمد الى جانب الزراعة على صناعة أو صناعات تعوض عليه شيئا من خسائره فى أعوام القلة أو الكساد • والدليل على ذلك اننا أنشأنا بنك التسليف الزراعى والتعاونى ووضعنا نظام السلف الصناعية ، ولكننا لم نفكر فى انشاء بنك للتسليف على الصناعات الزراعية ، ولم نخط فى هذه السبيل خطوة كبيرة أو صغيرة • فكأننا بذلك نضحى بناحية الزراعة لناحية الصناعة •

أما ما سوف يترتب على هذه السياسة من الأثر الاجتماعى فهو أن المرأة ستخرج من ميدان المزرعة الى ميدان المصنع •

والمرأة فى المزرعة هى الفقار المقوم لحياة الزراعة . أقول ذلك عن خبرة وشهادة صحيحة . فاذا كان الفلاح مصدر الانتاج الزراعى ، فان الفلاحة هى مصدر الانتاج الصناعى . هى التى تربى الدواجن وهى التى تقوم بصناعة الألبان والدهون على قدر ما تؤهل بها معلوماتها الضئيلة فى هـذا الشأن . فالفلاح هو المنتج ، والفلاحة هى الممونة .

اذا خرجت هذه اليد من ميدان العمل الفلاحى واستغلها المصنع الكبير وأغراها بالأجر الطيب الذى يصلها بانتظام يجعلها تشعر بشىء من الطمأنينة فى الحياة ، وخلت المزارع من تلك الأيدى الماهرة ، فاننا ولا شك نعرف النتيجة .

— ٤ —

ان الصناعات الزراعية ، وهى صناعات صغيرة ، مما ينبغى أن توجه اليه أكبر همنا فى نهضة صناعية نحاول أن ننهضها . فان هذه الصناعات اذا توافرت لها الآلات الحديثة ، لا تحتاج الى جهـد عضلى تعجز المرأة عنـه . وهى فضلا عن ذلك اذا تناثرت فى المزارع حفظت على الزراعة منزلتها ورفعت من شأنها وقوت من انتاجها وضاعفت من أرباحها . وهى الى جانب هذا كله تقلل من طغيان المصانع الكبرى على اليد العاملة فى الزراعة .

ان من العبث أن نقول ان المصانع الكبيرة سوف لا تطغى على المرأة فتخرجها من الحقل الى المدينة . فان تجارب الذين

سبقونا الى ذلك قد دلت على أن ذلك غير صحيح • بل لقد عانت بعض البلاد الاوروبية الأمرين ، اذ نشأت من جراء ذلك مشاكل لا تزال تعانى تلك البلاد نتائجها حتى الآن •

والسياسة الرشيدة التى توحى الينا بها الظروف التى نحن مقبلون عليها ، تحتم علينا أن لا نضحى بالزراعة فى سبيل الصناعات الثقيلة ، ولا أن نضحى بالصناعات احتفاظا بحياتنا الزراعيــة التى ألفناها القرون الطــوال • واذن ينبغى أن نكافىء بين الناحيتين • يجب أن نقيم الزراعة على نظام آلى ، وأن ننشىء الصناعات الزراعية ونرعاها ونشجعها ونرصد لها الأموال التى تحتاج اليها حتى تستقر وتصبح مصدرا من مصادر الثروة لهذه البلاد •

أما اذا لم نفعل فان النتائج ستكون وخيمة ولا شك • ستخرج اليد التى نحتاج اليها فى الحقول الى مصانع الحديد والنسج والغزل وغيرها ، وتنحط الزراعة وتقل منها اليد العاملة ، وستخرج المرأة من بيتها الريفى الى المدينة لتعمل فى المصنع بدلا من العمل فى الحقل •

فى جميع ما يترتب على هذا الانقلاب من النتائج والأحوال ينبغى أن يسمع صوت المرأة كما يسمع صوت الرجل • فانها من حيث انها عنصر انتاجى ، لا تقل عن الرجل شأنا ولا تنزل مكانة ، وان لها فى الانتاج لميادين لا يستطيع الرجــل أن يقتحمها بحال من الأحوال •

الفصل الخامس

علاقة الرجل بالمرأة ـ أطوارها ـ القردة العليا والانسان ـ العقائد والأساطير وعلاقتها بقضية المرأة ـ كيف ارتدت المرأة بسياسة الرجل عاجزة خاملة ـ تعاظم الفروق بين كفايات الرجل وكفايات المرأة نتيجة لتسلط الرجل ـ الرجل يصد التطور الطبيعى عن أن يؤثر فى المرأة ـ المرأة والرجل فى اقامة المدنية الانسانية ـ القيود والحرمانات التى فرضها الرجل على المرأة هى السبب فى ردها عن النشوء الطبيعى .

— ١ —

ان العلاقات التى قامت بين النصيفين [١] ، الرجل والمرأة ، منذ أقدم العصور التى نشأت فيها الجماعات الانسانية ، قد تقلبت فى أطوار عديدة مختلفة المظاهر متباينة المرائى . ولا شك فى أن هذه العلاقات فى أول النشأة الانسانية كانت أشبه بالعلاقات التى يذكرها المواليديون (علماء التاريخ الطبيعى) قائمة بين القردة العليا ، وهى التى يسمونها علميا « البشريات » : Anthropoidea . كانت علاقة مزاوجة لا علاقة اباحية ، على ما يرى من حال أربعة الأجناس العليا

---

(١) النصيف النصف وهى الكلمة العربية التى اخترتها لتقابل كلمة Sex والتى جرى المترجمون على أن تقابل كلمة جنس . وكلمة « الجنس » علمياً : Genus تنقل معنى مخالفاً تماماً مما يقصد بكلمة Sex . وقد استعمل القرآن كلمة « الزوج » لإفادة الوصفية لا لإفادة الإسمية فقال : خلق منه الزوجين الذكر والأنثى . وكلمة نصيف حسنه تقابل كلمة Sex فيقال نصيف ذكر ونصيف أنثى .

من القردة وهى الغرلى والشمزى والارطان والشـوجر •
وكانت فوق ذلك علاقة طبيعية صرفة ، أى علاقة تعايش فطرية
لم يدخلها شيء من تأثير الأديان والعقائد أو المؤثرات النفسية
التى نشأت من بعد ذلك الطور فى نفسية الانسان • فان
القردة ، وهم أبناء عمومتنا الأقربين ، على ما ثبت بالأدلة
العلمية القاطعة ، كانوا ، ولا يزالون فى غاباتهم الاستوائية ،
المثل المضروب لما كانت عليه أقرب حالة للانسان فى بدائيته
الأولى • وهى حالة لم تتصرف فيها المؤثرات الطبيعية عن أن
تؤثر أثرها المحتوم فى أفراد الجنس البشرى • فقام كل قانون
من قوانين النشوء الطبيعى بدوره الكامل فى تنشئة الصفات
التى كان من الضرورى أن يتسلح بها كل من الذكر والانثى
فى سبيل الفوز فى معركة الحياة فرديا واجتماعيا • لم يقف
من شيء مصطنع فى سـبيل التناحر على الحياة والانتخاب
الطبيعى وبقاء الأصلح يصدها عن السبيل الذى رسمته الطبيعة
لرفع مستوى الأحياء •

ولما ضرب الانسان فى سبيل التقدم والنشوء العضوى ،
وزادت تلافيف دماغه تعقدا ، وأفضى ذلك الى اكتمال انتصاب
قامته وقدرته على استعمال يديه ، نشأت مع هذه الدرجات
التطورية صفات نفسية وأخرى خلقية ، صدت تلك السنن
الطبيعية عن أن تقـوم بدورها الكامل فى تنشئة الصفات
الجديدة أو على الأقل فى الاحتفاظ بكل الصفات التى رأت

الطبيعة انها ضرورية للحى البشرى حتى يستطيع البقاء فى أحضانها • وكان ذلك أول ما نشأ فى الانسان من الصفات التى دفعت به نحو تلك الصورة الجديدة التى ندعوها « المدنية » أو « الحضارة » • وما هذه الحضارة فى حقيقتها الا انحراف عن جادة الطبيعة ادت اليه سلسلة من التطورات البطيئة جرت الانسان جرا الى الغايات التى نعيش فى كنفها الآن •

منذ أزمان موغلة فى القدم قام عند الانسان بضعة عقائد صورتها الاساطير والخرافات ، ومن هذه العقائد فئة كان أثرها المباشر على حياة المرأة أعظم ما يكون • ولو أردنا أن نعدد شيئا من ذلك لما وسعنا فراغ هذا الكتاب ، ولكن يكفى أن نقول انه كان من أثر هذه الخرافات والعقائد التى كان مصدرها الدين ، ان بحث بعض الرجال فى « هل للمرأة نفس » ؟ وهل لها حق الحياة اذا أراد أبوها أو زوجها أن تموت • فوئد البنات، ودفن الزوجات أحياء مع جثث رجالهن، وحرمتهن أكثر الشرائع القديمة حق الملك والارث والحرية ، وسلطت عليهن ارادة الرجال يأسروهن فى البيوت ويضربوهن ويقتلوهن ويتلهون بهن كأنهن الحطام ، ويفعلون بهن كل الافاعيل التى من شأنها أن تردهن غبيات مسترخيات ضعيفات لا حول لهن ولا قوة ، ويسلكون بهن كل طريق من شأنه أن يميت فيهن الارادة ويضعف فيهن قوة الادراك ، ولم يكن

يطلب من المرأة ، شأن ممتهنى الرجعية فى زماننا هذا ، أكثر من أن تكون الدمية التى لا حياة ولا عقل ولا رأى لها ولا فهم فيها • وليس من شىء فى هذه الحياة أعمل على صد التطور عن سلوك سبيله الطبيعى ، من أن تقف فى سبيل حى فتسلب منه كل مقومات الحيـاة الطبيعية ، فتمنع عليه أن يكتمل جسمانيا ونفسيا وعقليا ، وتعجزه عن أن يتهيأ للسير فى موكب الطبيعة ، امنا العظمى •

بهذا ، وبتسلط الرجل على المرأة هذا التسلط العجيب ، تخلفت المرأة عن التطور والنشوء الطبيعى فى عصر الحضارة ، فوهن جسمها وعقلها وذكاؤها ، ومرضت نفسها وتعطـل وجدانها واستنامت همتها لضغط الاستبداد والظلم ، حتى أصبحت المخلوق العاجز الجبان • كل هذا والرجل يستكمل على مدى تلك العصور المتطاولة أهبته لحياة الفكر والعمل ، فعظم الفرق بينه وبين المرأة جسمانيا وعقليا ونفسيا ، بحيث أصبح الصدع بينهما مما لا تألفه الطبيعة ولا مثيل له فى غير الانسان من عالم الحيوان •

كان من نتيجة ذلك ، وقد استل من المرأة كل سلاح ، أن تدفعها طبيعة الحيـاة الى أن تتسلح ذودا عن حياتها ، بصفات الخداع والمكر والحيلة ، بل أن الطبيعة دفعتها الى أن تتسلح بالدموع ، وهى العنوان الأكبر على انهيار النفس وخور الروح • وبعد • فهـل رأيت منتصرا يبكى أو حرا

يتذلل أو يحتال أو ينافق ، أو يخادع فيسلك طريق الظلام ، وأمامه طريق النور ؟

— ٢ —

ذا كان تاريخ الرجل مع المرأة : تعطيل للمواهب والكفايات أن تكتمل فيها ، وصد لسنن الطبيعة عن أن تأخذ بيدها وترفعها الى المستوى الحقيق بأن يكون لها بين الأحياء . ولا يغرننا ما نرى فى رجل اليوم من مظاهر التلطف والأدب مع المرأة . فان أكثر الرجال انما يتخذون ذلك وسيلة لاستغلالهن الاستغلال الكامل ، مستعيضين عن الوأد والدفن والضرب والأسر بهذه المظاهر، لأن شرائع هذا الجيل قد كفت الرجل عن حقوقه ، وان شئت فقل عن مظالمه القديمة . وانما نحتاج الى كثير من الفهم والمرانة العقلية والنفسية لنتخلص نحن الرجال مما ورثناه من ذلك . كما أن المرأة تحتاج الى أن تدفع عن حقها فى الحياة بالظفر وبالناب .

وهل من بغى أشد من أن يقف الرجل بنزواته الدنية فى سبيل أن تتطور المرأة وتتنشأ مواهبها الطبيعية ، ثم يقول لها ، وما هى الا خلق شهواته ، انك «مخلوق أدنى» ؟؟

شذت بعض العصور فلم تستقو فيها هذه العوامل المفتعلة ، فنشطت مواهب المرأة وازدهرت بفضلها الحضارة واستقام المجتمع . ولكن مع الأسف ان هذه العصور فى تاريخ الانسانية ، أشبه شىء بكلمات الصدق التى تفلت من شفاه

الكاذبين . هي ومضات البرق الخلب . ولكن الأمل فسيح في أن تصعد المرأة في عصر الحرية سلم الارتقاء ، وأن تضرب في فضاء هذه الدنيا الواسعة التي احتكرها الرجال دونهن القرون والأحقاب .

— ٣ —

يقول الرجال ان المدنية من خلق الرجل . من خلق عضلاته وعقله ونفسه . وان المرأة كانت عالة عليه في ذلك . وقد نسلم جدلا بكل هذا ، وان كنا نسلم أيضا بأن الرجل كان طفلا ، وان الطفل كان جنينا وان الجنين كان مضغة ، وان له أما هي التي نشأته وأخرجته خلقا سويا ليقيم صرح المدنية . أم نذكر بعض الرجعيين بما يخزيهم اذ يقولون ان المرأة ليست بشيء أكثر من انها « حاضنة حية » فيها تتخلق الانسانية ؟ وما يقصدون بذلك الا أن جنينها لا يكسب من دمها ومن صفاتها شيء ، زورا ومبالغة في الكبر والبغي ، وافتياتا على الطبيعة وعلى الفطرة .

تتجاوز عن هذا كله . تتجاوز عن المركز السامي الذي خصصته الطبيعة للمرأة ، بحيث جعلتها القوامة على الطفل ، سيد المخلوقات . تتجاوز عن هذا لنسأل : ومن ذا الذي كف عضلات المرأة وعقلها ونفسها عن أن تشارك الرجل في اقامة صرح الحضارة ؟ من ذا الذي أسرها وكبت احاسيسها وأضعف عقلها وأوهى عضلاتها ؟ من ذا الذي وأدها ودفنها

حية ليشعرها بأنها المخلوق الذى لا شأن له ولا وزن فى الحياة ؟ من ذا الذى احتفظ بها جاهلة ضعيفة العقل مكبوتة العاطفة منبوذة الرأى ؟ من ذا الذى اتخذها ألهية ولعبة من ألاعيبه ؟ من ذا الذى استغل فيها عاطفة الحب ، أسمى العواطف الانسانية ، واستذلها بها ثم تنكر لها ؟ من ذا الذى أشعرها بأنها المخلوق العاجز المستكين ؟ من ذا الذى أحيى فيها الشهوات وأمات فيها العقل ، ومن ذا الذى دفعها الى الخديعة والمكر والحيلة ، ومن ذا الذى جعلها تتسلح بالدموع ؟ أظن أن أسيادنا الرجعيين عندهم به علم اليقين .

— ٤ —

ان القيود والحرمانات ، بل وضروب الشقاوات التى فرضها الرجل على المرأة ، انما كان السبب الأول فيها نزعة الرجل الى حب التسلط والكبرياء ، ثم الجهالات التى تتفرع عند هذه الصفات النفسية . أضف الى ذلك الأوهام التى بثها الدين فى كثير من الشعوب البدائية وتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، فأصبحت بالوراثة واللقاح خلفا عن سلف ، أشبه شىء بالمقدسات التى يعتبر الخروج عليها انتهاكا لحرماتها .

أعتقد مع هذا أن بين الرجل والمرأة فروقا فطرية لا سبيل الى نكرانها . فروقا جسمانية وتكوينية اختص بها كل منهما . ولكن هذه الفروق قد استغلت من ناحية الرجل استغلالا زادت بها قوته وكفاياته ، واتضعت بها قوة المرأة وكفاياتها .

وان من المشاهد الجلية فى هذا الأمر انك مهما أدرت عينيك فى عالم الحيوان لم تجد أن الفروق بين الانثى والذكر قد بلغت من المقدار ما بلغت بين الرجل والمرأة فى الحضارات القديمة والحديثة • بل انه على العكس من ذلك أتزن فى عالم الحيوان كفتا التبادل بين الذكر وانثاه من حيث النفع والعمل والترابط، فقامت العلاقة بينهما على مقتضى الفطرة ، بتوزيع العمل والتخصص • وعلى العكس من ذلك تماما فى عالم الانسان ، استبد الرجل بكل شيء ولم يترك للمرأة شيئا ، بل انه قد اعتدى على ما خصصت الطبيعة للمرأة من ميادين العمل والانتاج ، ولم يترك لها الا الأشياء التى صدته الطبيعة عند القيام بها ، كالحمل والوضع والرضاعة • وجملة القول أن الرجل قد خلف المرأة اداة للقيام بما لم يستطع هو القيام به ، وانتزع منها فوق ما انتزع من حقوق الحياة والحرية والسعى، أكثر ما كان ينبغى لها أن تدبر من شئون الاسرة والبيت ، ليقيم بذلك سلطانه عليها ، وتنتهى هى بذلك الى الخضوع والذلة والاستكانة •

ومحصل ذلك كله أن معاملة الرجل للمرأة كان سببا فى أن ترتد كائنا ضعيفا مترهلا ، بل انه فى أكثر الحالات وعند الاغلب الأعظم من طبقات المجتمع ، لا تعتبر المرأة الا كائنا من شأنه أن يلبى نداء الجنس • فنحن الرجال قد رمينا النساء بادوائنا وأنسللنا ، لنقول لهن فى النهاية انتن خلقا أدنى •

الفصل السادس

زعماء الدين ـ زعماء الدين ونشوء العلوم الحديثة ـ تناقض في أقوالهم ـ ألفاظ مختارة لتضخيم المعاني البسيطة ـ رسالات الأديان حركات تطورية ـ في رسالات الأديان اعتراف ضمني بالتطور ـ تحوير الرأى فيما أقر الاسلام للمرأة من الحقوق ـ محاولات لاستبقاء سلطة الرجل على المرأة واطلاق هذه السلطة من القيود ـ ميدان الرجل وميدان المرأة سبيل الى الاستعباد ـ طبيعة الحياة الجديدة ـ حشد القوى الجماعية ـ الاقتصاد ملاك الحياة الحديثة ـ الاستقلال السياسى تبع للاستقلال الاقتصادى .

— ١ —

عمد زعماء الدين فى كل زمان الى ما يسلحهم به الدين من سلطة ، لتكون هذه السلطة برهانهم الأوحد ودليلهم القاطع فى مجال الرأى • وعمدوا الى جانب ذلك الى تصوير الدين بأنه ذلك الشيء الجامد الصلب الذى لا يساير الزمن ولا يخضع لمقتضى ما تخضع له الأحياء من التطور والنشوء ، عضويا وفكريا وعاطفيا ، ظانين أن الزمن انما يدور ولا تدور معه الأحياء ، ولا تختلف الأوضاع ولا تتغير المشاعر ولا تتبدل الاتجاهات ، وأن ذاك الذى كان عليه الناس فى زمان ماض ، لا تؤثر فيه العوامل الاجتماعية والاقتصادية • بل انهم بذلك يشعرون الناس بأن من طبيعة الدين التخلف اذا ما جد السير بالجماعات الانسانية نحو أهداف جديدة أو نظامات تحتمها

عوامل من التطور دقيقة كل الدقة غامضة أسبابها كل الغموض، فى حين أن آثارها كالسيال الموجب فى الكهرباء لا بد من أن يخلف أثره المحتوم فى تكوين مزاج الجماعات .

عمد زعماء الدين الى أشياء اتخذوا منها وسيلة لاقرار سلطانهم لا سلطان الدين ، كقولهم بالتكفير والمروق والردة ، اذا ما بدا فى الافق من أثر التطور الفكرى ما يمس ذلك السلطان الذى يحاولون من ناحيته الاحتفاظ بمالهم من سلطان .

حدث ذلك عند نشوء العلوم الحديثة فى جميع أنحاء العالم ، وفى أوربا خاصة . حدث أن رمى رجال الدين العلماء بالكفر والالحاد والزندقة عندما أخذت علوم اثباتية يقينية فى التنشؤ كعلم الفلك الحديث وعلم تطور الاحياء وعلم الجيولوجيا والطب النفسانى والاقتصاد والأرصاد الجوية ، بل كانت لهم مواقف كهذه ازاء كل رأى أو حركة اجتماعية أو فكرية فيها شىء من روح المنافرة لما اعتقدوا أنه من أصول الدين أو من قواعده الأولية ، ناسين الى جانب ذلك ان الدين انما يهدى الى الحق ، وان الحق اذا ظهر وبان واتضح ، انبغى أن يعتبر أصلا من اصول الدين ، وان الحق انما هو ذلك الشىء الذى يصطلح عليه أكبر مجموع فى جمعية بشرية . لأن الدين الذى هو الحق ، لا يرغب عن نصرة الحق اذا بان الا وكان فى ذلك منافاة صريحة لرسالته ، فيقر الدين الحق أينما كان فى أية صورة ظهر وفى أى مرفق من مرافق الحياة

كان ، وانما يحاول أن ينكر ذلك رجال نصبوا أنفسهم قوامين على الدين وعلى الحق وعلى الناس ، لا لشيء الا لأن التقاليد التى درج عليها الناس منذ القـدم ، هي أن يكون للدين ممثلون ، والدين عند الواقع فى غير احتياج الى من يمثله مادام انه يمثل الحق والحق يمثله .

يلجأ أولئك الى جانب هذا الى أقوال قلما يؤمنون بها . يقولون ان الدين انما يحكم فى أمور الناس والحياة صوت العقل والتفكير لا دواعى الهوى والغرض . وهم اذ يقولون ذلك لا يلبثون غير قليل حتى يقولوا ان اللجوء الى التأويل شطط وتبديل ، كأنما هم فى نفس الوقت الذى يقولون فيه بأن « صوت العقل » ، ينبغى أن يكون الحكم فى امور هذه الحياة ، لا يصفون العقل الا بأنه الخضوع لما جرت عليه أحوال الناس فى عصور تفصلهم عن العصر الذى يعيشون فيه المئات بل الألوف من السنين . بل هم يريدون أن يقولوا ان العقل ينبغى أن يقيد بالنقل تقييدا وأن يخضع لما فسرت به النصوص فى زمان لو اننا ارتددنا اليه الآن ، ورجعنا الى ما كان فيه من أصول مدنية وحالات اجتماعية وأفكار ونزعات ونظامات ، لفقدنا فى وسط هذا العالم الذى تمثله مدنية القرن العشرين ، كل حق لنا فى أن نوجد أو يكون لنا كيان اجتماعى أو سياسى . بل لو اننا ارتددنا جمعية بدوية تدين من حيث النظام السياسى بما دان به أوائلنا اذن لكنا فى وسط

هذه المدنية الحديثة أشبه شيء بالنقطة المظلمة من الضوء اللامع .

جريا على القاعدة التى اتبعها رجال الدين فى كل الأزمان سميت مطالبة النســاء بحق الانتخاب والتمثيل « فتنة » . اراد القائلون بأنها « فتنة » أن يضخموا المعنى فاختاروا له اللفظ الذى ينقل الى الذهن معنى الخروج والردة والعمل على تقويض اصول المجتمع اختاروا كلمة « الفتنة » بالذات ولم يقولوا « البدعة » أو غيرها من الكلمات التى تخفف المعنى المنقول الى الذهن ، كما قالوا قديما بالكفر والزندقة ، يرمون بهما كل من أراد أن يصلح من الفكر أو النظام شيئا درجت عليه القرون . ذلك فى حــين انهم لو فكروا قليلا لوجدوا أن جميع الرسالات الدينية كانت فى عصر نشوئها ثورة على الأوضــاع القديمة . فكأن الأديان بحكم انها رسالات اصــلاح هى فى حقيقتها خروج على مادرج عليه الناس من أفكار ونظامات وشرائع ، واذن تكون رسالات الأديان هى أقوى الرسالات التى عملت على رقى الانسان ، وانها بمقتضى ذلك أعظم ما أصاب الفكر البشرى والمدنية من الانقلابات المدوية فى خلال القرون ، وتكون هى أقوى الأشياء أثرا فى تكوين الآراء والأفكار الجديدة ، وتكون أول ما يعترف بحقيقة التطور فى الحياة . ولو لم يكن فى نشر الرسالات الدينية اعتراف ضمنى بحقيقة ان الحياة تتطور

وتتنشأ ، وانه بمقتضى هـذا التطور تحتـاج الى نظامات وشرائع ومعاهد جـديدة تلائم درجات التطور التى بلغ اليها ، لظللنـا الى الآن نضرب فى ظلمات القرون الأولى ، فى ظلمات الوثنية والتكثير ولما قام لعبادة الواحد الأحد قائمة فى هذه الدنيا .

اذن وجب علينا ، ووجب على رجال الدين قبلنـا ، أن يعترفوا بحقيقة تطور الأشياء ، وأن يسلموا الى جانب هذا بأن الرسالات الدينية ، لم تكن فى حقيقة الأمر الا استجابة طبيعية لما وصل اليه الناس من درجات ذلك التطور ، وان كل رسالة من تلك الرسـالات كانت من طابع ذى لونين : انها تفرض من النظامات ما يلابس الدرجة التى بلغها تطور الناس ، وانها تضع الى جانب هذا من الأصول العامة مايجعل تحوير تلك النظامات مستطاعا لتلابس حالة أخرى سوف يصل بهم اليها التطور .

هذه حقائق لايمارى فيها الا مراء ظاهرا . ولكن الواقع أن رجال الدين حتى لو سلموا بهذه الحقائق ، فانه يكبر عليهم أن يجاهروا بها ، لأن فى المجاهرة بها انتقاص لذلك السلطان الذى يتوسمون انهم به يستطيعون الاحتفـاظ بتلك السلطة التى انتزعوها من الدين وماهى من الدين فى شيء .

فى صميم الرسالات الدينية اذن اعتراف ضمنى بحقيقة التطور . والا لكان فى انكار ذلك نكران صريح لما للدين من القوة الارتقائية ، أى القوة التطورية . لأن التطور ارتقاء ونشوء وانتقال من حال الى حال اضرب منها فى معارج التقدم.

لو لم تكن هذه هى روح كل رسالة دينية ، لظلت المرأة قبل الاسلام كما كانت . « تعد من سقط المتاع ، لا حرمة لها ولا كرامة ، ولا رأى ولا حرية ، تعامل كالعبيد ، وتسجن كالمجرمين ، وتورث كالأثاث والعقار ، وتعذب للهوى الجامح أو الشهوة الرعناء ، وتحرم من التعلم والتملك والارث»... ولما حملت من التبعات ما حمل الرجل . ذلك بأن الاسلام أباح لها التعليم والاتجــار والتملك والأرث وابداء الرأى فيما يخصها ويعنيها من أمور الحياة ، وندب الى أن يسمع رأى المرأة فى أختيار زوجها وشريك حياتها .

ولكن ذلك الذى أقر الاسلام للمرأة ، قد تحور الرأى فيه تحويرا استند فيه الى نَصّين : الأول قوله تعالى : الرجال قوامون على النســاء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ؟ والثانى قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . صدق الله العظيم .

ولا مماراة فى أن هذا النص الصريح ، قد بولغ فى تفسيره مبالغة أدت الى نقيض ما قصد منه . فكون الرجال قوامين

على النساء بوجه التفضيل وبما أنفقوا من أموالهم ، وأن للرجال عليهن درجة ، لا يستنتج منه كل ما ذهب اليه أولئك الذين فسروا ذلك تفسيرا سلب المرأة كل ما أضفى عليها الاسلام من الحقوق وما اختصها به من لامتيازات العليا .

فسر ذلك بأن الأسرة التى تتكون من رجل وامرأة وتوابعها لابد لها من تنظيم القيادة ، وتعيين الخطة ، لأنها أشبه بدولة صغيرة تتكون منها الدولة الكبيرة ، وانه اذا لم يوجد فى الدولة من يقودها ويسوسها تعددت القيادات واختلفت الرغبات ، فسادت الفوضى ، وعم الشقاق ، وان الله قد ميز الرجل بميزات دينية ومادية وعقلية وحيوية تجعله كفؤا لهذه القيادة . بذلك يقولون اطلاقا وبغير تحديد .

لقد اتخذت قوامة الرجل على المرأة سبيلا الى الاستبداد الذى لا حدود له ولا ضوابط ، بالرغم من أن الاسلام لم يقصد مطلقا الى هذا ، بل الواقع أنه قصد بقوامة الرجل على المرأة أن لا تكون مطلقة بل مقيدة بقيود وضوابط تستنتج عقلا . فهل كل رجل جدير بأن يكون قواما على كل امرأة ولو كان فاسقا قاتلا أو لصا سفاحا ، وكانت هى من الفضليات العفيفات العارفات بحدود الله ؟ هل الرجل المسرف المقامر الرذل خليق بأن يكون قواما على المرأة اطلاقا وبغير حد . اذن تكون قوامة الرجل على المرأة محصورة فى حدود

أن يكون رجلا فاصلا كاملا عفيفا تقيا عارفا بواجبه ، نقيا طاهر الذيل ، وعلى الجملة أن يكون رجلا مستحقا لأن يكون قواما على أسرته وأهل بيته ، والا فان هذه القوامة ولا شك تسقط عنه ، وتكون المرأة اذا كانت عفيفة فاضلة أجدر منه وأخلق بأن تكون قوامة عليه وعلى أسرتها وأولادها وبنيها ، بل وعلى ثروته وشئونه ومعاملاته ، وكثيرا ما رأينا نساء قد أصبحن وصيات أو قيمات بأحكام القانون والشرع على أزواج لهن أو أولاد ، لأن الاسلام الحنيف لم يضع من الأحكام ما هو مطلق من قيود الزمان والمكان وظروف الحال . بل أنه حضنا على أن نجتهد وأن نفكر وأن نتطور مع الزمان ومع الظروف ، بل انه جعل الناس أحرارا حتى فى العقيدة من حيث تعلقها بالكفر والايمان : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وان دينا يقدس حرية الارادة هذا التقديس ، يبعد عليه أن يجمد ، كما يريد هؤلاء ، فيطلق قوامة الرجل على المرأة من كل قيد ويحررها من كل الحدود التى قد ندركها بالعقل أو تفرضها علينا ظروف الأحوال . ومن من النساء تستكبر بأن يكون القوام عليها رجلا فاضلا عارفا بحدود الله والأدب ، ومن منهن تقبل أن يكون القوام عليها رجلا ساقط الأدب ، رذلا سفيها ، أو قاتلا لصا دنىء الطبع سىء النشأة ، أسفت نزعاته واستقوت عليه شهواته واستعبدته نزواته الحيوانية .

— ٣ —

ان القول بتنظيم القيـادة وتوحيد الخطة فى سياسـة الأسرة ، لقول له خبىء وخبيئه أن تكون السلطة المطلقـة المفردة والارادة التى لا ترد ، للرجل دون المرأة ، بلا نظر الى الملابسات التى قد تجعل المرأة فى كثـير من الأحوال أجدر بأن تكون صاحبة القيادة لا الرجل • خبيئه أن يكون الرجل الحاكم المطلق المستبد وأن تـكون المرأة الـكائن المستذل السـجين فى قيود من ارادة الرجـل ، وقيود من نزواته واسفافاته ، اللهم الا أن يكون رجلا فاضلا يعرف كيف تكون الحـدود ، وكيف تكون القيود ، وأن يكون فوق ذلك رجلا عارفا بأن الحياة جهاد وتطور وأن ما صلح لعصر لا يصلح لعصر غيره ، وأن عجلة الزمان تدور •

على أن الواقـع أن الرجـل والمرأة لا تفصل بينهما من حيث التحلى بالفضائل أو التردى فى الرذائل ، تلك الفروق التى تبرر أن يكون الرجل قواما على المرأة اطلاقا وبغـير قيـد أو حد • ذلك بأن فضائل الأخلاق ليست وقفا على الرجل وحده ، وليست الرذائل وقفـا على المرأة وحدها ، ولـكن التفسير الذى فسره هؤلاء لقوامة الرجل على المرأة ، قد فرض ، ولـكن بغير مرجحات ، ان كل رجل أفضل من أية امرأة ، ولهذا وجب عندهم أن يكون الرجل اطلاقا صاحب القوامة وصاحب القيـادة وصاحب التوجيه ، وان الرجـل فاضل صالح لـكل ذلك ، وأن المرأة اطلاقا لا تصلح لشىء !!!

لكى نسلم لهم بما يريدون ، ينبغى عليهم أن يقيموا الحجة على أن فضائل القيادة والتوجيه وحسن الرأى ، لا يختص بهم الا الرجل ، وان المرأة لم تخصها الطبيعة بشىء من ذلك . عليهم أن يبرهنوا أن الرجل خلق وحده ، وأن المرأة خلق آخر حتى يستقيم مذهبهم مع منطق الواقع ، والا فان الحجة تلزمهم بأن قوامة الرجل على المرأة ينبغى أن تخضع لشروط قلما تجعل حق القوامة الذى ينشدون منطبقا مع حاجات الحياة ومع حاجات العيش الطيب .

أما أن نقول ان الرجل قوام على المرأة اطلاقا وبغير قيد ، ففيه منافاة للعقل ، وفيه معاداة لكل ما أضفى الاسلام الحنيف على المرأة من الحقوق ، وما حدد لها من منزلة فى الحياة . ذلك بأن كل ما فيه صفة الاطلاق ، فيه أيضا صفة الاستبداد والتحكم ، واخضاع ارادة تعتبر ارادة دنيا ، لارادة أخرى تعتبر ارادة عليا ، فيترتب على ذلك أن تصبح المرأة ذلك المخلوق القاصر الذى لا رأى له ولا ارادة ولا كيانا مستقلا فى حياة الأسرة أو الوطن .

وانما قصد بأن الرجل قوام على المرأة أن يكون بينهما تشارك فى المصالح محدود بحدود العقل والحرية ومراعاة للواجبات والمسئوليات ، وعلى الجملة ، قصد به أن يكون أساسا لاقامة حياة تكافلية فى ذلك العالم الصغير الذى نسميه الأسرة . ولن تقوم حياة تكافلية فى جماعة من الجماعات الا اذا كانت حرية الارادة أساسها وسنادتها .

ان ملاك الأخلاق الفاضلة الاعتراف بأن غيرك من المخلوقات فيه قدر من الفضائل والاستعداد الطبيعي لفعل الخير ما يبرر أن يكون له قدرا من الحرية العقلية والارادية ، هو حقه الطبيعي فى حياة أساسها حرية الارادة .

أما أن نطلق قوامة الرجل على المرأة من كل قيد ، ونحررها من كل الحدود ، حدود العقل والأوضاع الاجتماعية ، فانما ذلك يكون الاستبداد بعينه ، بل يكون الاستعباد الذى حضت جميع الأديان على مقاومته والخروج عليه ، بل ان تقاليد الاسلام نفسه ، وهى تقاليد ورثناها تشبعا بروح الاسلام ، قد جعلت الحرية أساسا من أسس الايمان الصحيح ، بل ان الايمان فى الاسلام لا يكون ايمانا صحيحا الا اذا اكتملت فيه عوامل الحرية بجميع مجاليها العالية .

— ٤ —

يقولون :

« جعل الاسلام لكل من الرجل والمرأة ميدانا يختص به ، ويجاهد فيه ، فالرجل فى الخارج يتعب وينصب ويشقى ويجاهد ، ويجمع ويكتسب لا ليستأثر بما جمع ، بل ليشارك فيه أختا عزيزة علية ، تجاهد من خلفه من ميدان آخر كريم مستور هو ميدان البيت ،فتبذل هناك كل مافى وسعها من حيلة وفن وتدبير لتهيئة سعادة بيتية حبيبة تطعم شهدها وسلافها الطهور مع زوجها فى حياة كريمة » ...

هذه الجمل الخطابية هى غاية ما وصل اليه القائلون بأن المرأة خلقت للبيت من حقائق هذه الحياة الحديثة • لم يدركوا أن الحياة انقلبت موازينها وتبدلت حقائقها ، وان الاسلام الذى أباح للمرأة أن تبدى رأيها وأن تتجر وأن تتعلم وأن يكون لها ملك تتصرف فيه بمحض ارادتها ، لا تتفق مبادؤه هذه مع أسر المرأة فى البيت وأن يكون كل حقها فى الحياة أن تقيم بين جدران أربعة تحصر فى جوانبها الضيقة كل واجباتها فى الحياة • على أن الذين يستمسكون بهذا المذهب لا يدركون عادة أن الحياة الجديدة حياة أساسها اقتصادى صرف ، وان أثر ذلك فى كيان الجماعة قد جعل الاستقلال فى الحياة صنو القدرة الاقتصادية ، وأن المرأة اذا لم تعمل لتكون مستقلة اقتصاديا ، ارتدت تلك اللعبة التى يتلهى بها الرجل بل عادت ذلك الكائن الخاضع المستكين الذى يحتاج دائما الى معونة الرجل ، مما يتنافى مع روح الاسلام ، بل يتنافى مع الحق الذى هو روح جميع الأديان •

ولعمرى بأية شريعة أو قانون يفسح للرجل أن يكون مستقلا فى ميدان الحياة ، ولا يفسح مثل ذلك للمرأة ؟ ولماذا يكون للرجل حق السعى والكسب مما يجعل له اليد العليا فى الحياة على المرأة ، ولا يكون للمرأة نفس هذا الحق ليكون لها من الاستقلال الاقتصادى ما تتحصن به من استبداد الرجل اذا ما ظلت عالة عليه ؟ اللهم أن لا شريعة ولا قانون

يمنع المرأة من ذلك ، وانما يمنعها من ذلك تقاليد درجنا عليها ولزمناها غير شاعرين ان زمانها قد فات وانقضى ، متعامين عن أن حقائق الحيـاة التى تغمرنا قد عصفت بها عصـفا وارسلتها أباديد .

عاشت الجماعات الانسانية فى العصور الأولى مأسورة ضمن حدود جغرافية . عاشت فى أرجاء تفصل بينها الأنهار والجبال والبحار وغير ذلك من الموانع الطبيعية . فكانت هذه أشبه بعوالم صغيرة يتألف منها عالم كبير . ولكنه عالم بالرغم من كبره واتساعه ، كان مفكك الأوصال ممزق الوحدة ، على العكس مما نشهد اليوم . فقـد اندثرت قوى الزمن وقوى المكان ، تلك القوى التى احتكمت فى حياة الجماعات الانسانية الأولى . لقد أصبحت الحياة الانسانية وحدة كاملة، وأصبح العالم الذى نعيش فيه بغير حدود طبيعية ، بل ان حدوده انقلبت حدودا ليست هى بأكثر من اعتبارات جغرافية . فالطائرة والموجات الأثيرية والباخرة ، قد أثرت فى قوى الزمن وقوى المكان وكادت تدثرهما ، وربطت بين مصالح العالم بتلك الوحدة الاقتصادية التى تحتاج فيها الشعوب الى بذل كل مجهـوداتها لتحتفظ بكيانها الاقتصـادى قواما على استقلالها السياسى . هذه الحالات الجديدة تقتضى انقلابا فى حشد قوى الجماعات حشدا من شأنه أن يزج بجميع أفراد الأمة رجالا ونساء فى معترك الانتاج الاقتصاد ، لأن ذلك أصبح طريق الخلاص فى هذه الدنيا العامرة بصنوف التنافس

الانتاجى ، والتى أصبحت القـدرة الاقتصادية فيها معيارا للاستقلال السياسى • وهذه الحقائق التى نلمسها ونعـانى آثارها فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، تجعل لزاما علينا أن نحشد قوانا جميعا ، رجالا ونساء ، وتحملنا قسرا على أن نخرج المرأة الى ميدان العمل وأن نزج بها فى مرابع الاقتصاد والانتاج ، لأن غيرنا من الأمم الطامعة فى خيراتنا ، العاملة على هدم استقلالنا الاقتصادى توصلا الى اخضاعنا السياسى، قد حشدت جميع قواها للهجوم ، فكيف بنا اذا لم نحشد جميع قوانا للدفاع عن حياتنا وكياننا واستقلالنا ؟ لا شك فى أن مصيرنا فى هذا المعترك يكون مصير أمة اكتنزت قواها وعطلتها جريا وراء أوهام تساور بعض الرءوس ، انتظارا للخلاص فى الآخرة ، وان كان ثمنه السقوط والاستبعاد فى هذه الحياة • وما كان الاسلام الا دين القوة والاستعلاء والحرية والاستقلال السياسى • حضنا على أن نعد لهذا المركز العالمى ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل ، وقد أصبحنا بالتهاون والجمود لا حول لنا ولا قوة ، ولا خيل ولا رباط •

لقد كان للفتيات الروسيات خطر السبق فى انقاذ ستالنجراد من الغزاة الألمان • حقيقة لا يمارى فيها الا العميان • فقد قمن بتموين المدينة فى أثناء الليل وتحت جنح الدجى ، وحملن اليها الذخيرة والميرة ، تحت وابل الرصاص والقنابل ، ولولاهن لسقط ذلك الحصن الذى حمى روسيا كلها من

السقوط . فهل يظل نساؤنا للبيت فى حين أن نساء غيرنا قد خرجن الى حومة الوغى يتحملن الموت فى سبيل الوطن ، ونطلب من هذه الدنيا أن تعطينا مزيدا من مطلوبات الحياة .

خرج نساء العالم المتمدين الى المتجر والمصنع والحقل ، ونريد لنسائنا أن يكن قعيدات البيوت ، وأن يظللن الكائنات المعولة ، وأن يمضين ذليلات حقيرات بعيدات عن الحياة مقصورات على الطبخ والغسل وحمل القمامة الى خارج الحجرات والمنازل ، ثم نقول أن ذلك حكم الله !!! انما ذلك حكم اننا نحاول أن لا نساير الزمن ونبغى أن نظل كما كان آباؤنا مأسورين فى حلقة من الأفكار البالية ، جاهلين أن العالم قد اندفع الى الأمام فراسخ وأميالا ، وان الامم تحشد جميع قواها لتستأثر بالدنيا ، فى وقت نتطلع فيه الى الآخرة وحدها ، وننسى أن هذه الدنيا هى الطريق الى تلك الآخرة ، بل اننا نحاول أن نتجاهل اننا فى هذه الدنيا الصاخبة ، دنيا العمل والجهاد ، دنيا الحشد والاستجماع ، دنيا الاقتصاد والانتاج .

الفصل السابع

اقوال خطابيـة فى تمرد الرجل على وظيفتـه وتمرد المراة على وظيفتها ـ المراة حرة فعلا ـ مظاهر حنو على المراة يراد بها استعبادها ـ المراة فى الحقل مصدر ثروة وطنية ـ الاسلام يعتبر المرأة انسانا كاملا بالرغم من ظواهر النصوص ـ كلام فى الفوارق بين الرجل والمراة ـ الطلاق لا ينبغى أن يكون من حق الرجل وحده ـ الطلاق الرجعى معناه التعامل بالمراة فى سوق الغضب والرضا ـ القول بأن المراة لا تصلح الا محكومة ـ كيف يجب ان ننظر فى قضية المراة ـ النساء ناقصات عقل ودين وأنهن خلقن من ضلع اعوج .

— ١ —

يقولون : « ولو أن الرجل تمرد على وظيفته فاستأنث ، واستقر فى البيت لتحطمت الرجولة وفسد المجتمع ، وتعطلت الحياة ، وذلت قيمة الانسانية ، وكذلك لو تمردت المرأة على تعاليم ربها ، ونظم مجتمعها . فهجرت البيت الى الشارع ، وميادين العمل الخارجية ، لفقدت انوثتها ونسيت أمومتها وهدمت بيتها بيدها ، وتعرضت للاختلاط المشين بالرجال» ..

هذه العبارات الخطابية لا تغنى عن الحق شيئا . فما كان للرجل أن يستأنث أى يصير أما ومرضعا ، وما كان للمرأة أن تهجر بيتها الى الشارع لمجرد انها تتحرر من قيود التقاليد .

والبيت عند المرأة أقدس منه عند الرجـل ، بل ان للبيت في نفس المرأة من الحرمة ما ليس له مثيل في نفس الرجل • ان المرأة سلطانة البيت بل الملكة غير المتوجة في ذلك الكن الأقدس • فكيف تتخيل ، ارضـاء لنزعات عجيبة نحاول ارضاءها ، ان المرأة اذا تحررت هجرت البيت الى الشارع !!!

ولماذا نذهب بعيدا فليس نساؤنا غير محررات بل انهن أصبحن مالكات لرقابهن منذ أن نهضت مصر نهضتها الأخيرة ، فانتزعن الخمار وهتكن الحجاب ، وخرجن من البيوت ، لا ليكن في الشوارع متسـكعات ، بل ليعدن الى بيوتهن عارفات بأخص الواجبات ، مسلمات قانتات بعيدات عن الغى والهوى • من أين اذن ذلك الخيال الذي أملى هذه العبارات العجيبة التى قلبت الرجل انثى ، وجعلت من المرأة بنت هوى تتسكع في الشوارع والطرقات !!! انما جاء ذلك الخيـال مؤيدا لنزعات التسلط على المرأة بأية سبيل ومن أية ناحية وما نما واستشرى وكبر وضخم في تلك الرءوس الا مجاراة لأوهام ما أنزل الله بها من سـلطان • فان الفسق والفجور والبغي ، تلك المعاني التي لا يفكر واحد من هؤلاء في المرأة الا وتكبر في نفسه آثارها ، حتى أصبح بين هذه المعاني والمرأة تشاركا ذهنيا عجيبا ، انما تقوم دليلا على أن الذين يذهبون ذلك المذهب ، لا يدركون أن الفسق والفجور والبغي ليست أشياء وقفتها الطبيعة على المرأة أو صفات رصـدها الطبع للأنثى ، وانما هي أشياء يشاركها فيها الرجل أيضا • أما أن

الرجل مثـالا للطهر والعفـة ، وتصور المرأة مثـالا للبغى والاسفاف ، فان ذلك من أبعد الأشياء عن العدل الذى يقيم قواعد المجتمع ويرسى أسس النظام .

— ٢ —

يحنوا هؤلاء على المرأة ، ويصورون أنفسهم فى صورة المشفقين عليهـا أن تتعرض للمشكلات والمصـاعب التى يتعرض لها الرجـل خلال سـبحه الطويل فى خضم الحياة المتـلاطم كما يقولون . ولماذا لا يظهر ذلك الحنو وهـذا الاشفاق على المرأة ، عندما ترضخ لارادة الرجـل فتحبس فى البيت ، وتستذل اقتصاديا ، وتمنـع عن أن تكون ذاتا مستقلة بنفسها فى الحياة ؟ أمن الحنو أو العطف أن تحرم المرأة ثمرة العمل لتظل عالة على الرجل فيستعبدها ويستبد بها ، بحكم أنها فى حاجة الى سعيه واستجداء عطفه واستدرار جيبه ؟ أمن الحنو والاشفاق أن تظل المرأة تلك المستجدية الذليلة المحتاجـة الى سـعى الرجل ، والحياة من حولها تدعوها الى العمل ، بل وان الأمة جمعاء تستصرخها أن تبذل من جهـدها العملى والفكرى ما تستكمل به الأمة ذاتيتها وتقوى اقتصادياتها التى هى السبيل الأوحد الى استقلالها السياسى ؟

ولماذا نذهب بعيدا . فهل فى مستطاع هؤلاء بخطابياتهم هذه أن يحملوا الفلاحة على أن تقر فى البيت ولا تخرج منه ،

فلا تساعد فى الزرع وفى الحصاد ، ولا تعاون فى رعى الماشية واقامة الأبنية ورفع الطفيليات من الحقول ومقاومة دودة القطن ، ونقاوة الأرز ، الى غير ذلك مما تضطلع به فى عالم الزراعة أساس ثروتنا الأهلية ؟ وهل فى امكانهم أن يصوروا لنا حالة الريف ومقدار ما تفقد هذه الأمة من الملايين المملينة من الجنيهات اذا كفت الفلاحة عن الخروج الى الحقل والمعاونة فى أعمال الزراعة ، واتبعت مذهب هؤلاء فاستقرت فى البيت ولم يرن صوتها الغرد الجميل فى أرجاء الحقول النضرة فى الأصائل والأسحار ؟

والواقع أن الفلاحات أشد اختلاطا بالرجال من نساء المدن . فهن فى الحقول وفى الأسواق وفى القرى وفى البنادر متجولات متاجرات بائعات مشتريات ، عاملات غارسات حاصدات ، فهل سادت بذلك الفوضى ، وعم الشقاق كما يقولون ، أم أن الفوضى والشقاق بل أن العماء والموت انما هو فى مذهبهم الذى يريدون به أن يصدوا الفلاحة عن القيام بأعباء العمل المنتج فى الحقل ، وعملها فيه لا يقل عن خمسين فى المئة من مجموع العمل الحقلى فى السنة ، فاذا أضفت اليه عملها فى البيت باعتبارها منتجة ، زادت قيمة عملها على ذلك كثيرا .

وكيف يرضى هؤلاء للمرأة المتعلمة أن تظل عالة على الرجل فى حين أن الفلاحة الجاهلة تكاد تكون مستقلة بأعمال

بيتها ، بل وتكاد تكون مستقلة بحياتهــا • فانها فى اليوم الذى ينبذها فيه الرجــل ، تشمر عن ساعدها وتخرج الى الحقل عاملة تكسب قوت يومها • ذلك بأن طبيعة حياتها لم تفقدها قوة العضل ولا قوة الارادة •

— ٣ —

لا أريد أن أتكلم فى أن المرأة فى الاســلام قد اعتبرت نصف انســان اذ هى على النصف مما يستحق الرجــل ، ولا تقبل شهادتها فى الحدود والقصاص ، وان شهادة المرأة كالنصف لشهادة الرجــل • دعنا من أن القانون الجنائى والقانون المدنى يأخذ كل منهما الآن بشهادة المرأة على المساواة بشهادة الرجل ، وان شهادة المرأة فى حادث جنائى قد يؤدى برجل الى المشنقة أو الى السجن المؤبد • ولكن الاســلام قد أباح فى الوصــية والوقف أن يعطى الموصى والواقف ما يشاء من ماله الى امرأة أو بنت أو أخت أو عمة أو خالة أو لمن يشاء من النساء بغــير حساب ، ومن غير أن يكون عليه فى ذلك قصــاص من ناحية الدين • فكأن الاســلام بسماحته المعروفة قد اعتبر المرأة انسانا كاملا اذا أراد الرجل أن يعتبرها كذلك ، أى أنه جعل المرأة مساوية للرجل من طريق غير مباشر تاركا الأمر فى ذلك لمن يريد أن ينزلها تلك المنزلة • ولكن قلما يلجأ الرجال الى هذه الرخص السامية فيطبقونها • واذا أردت دليــلا على ذلك فانظر فى وثائق

الأوقاف . فكل وقف صدر عن رجل اما أن تحرم منه البنات الا قليلا واما أن يعطى لهن نصف ما للذكور عند التسمح . وأكثر الأوقاف التى صــدرت عن نساء تساوى فيها نصيب الذكر والانثى ، وكان النساء فى ذلك أقرب الى العدل والمرحمة من الرجال ، فانهن لم يقلن على الأقل .

أبنــاء أبنائنا بنونا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

يقولون : ان الفارق بين المرأة والرجــل ، كانت سببا فى أن يفرق بينهما الشرع . فلا يصــح امامتها للرجــال ولا محاذاتها لهم فى الصلاة ، ولا تصح خطبتها فى الجمعة والعيدين ، ولا يجوز لها الآذان أو الاقامة ، ولا يجب عليها الجمعة ولا العيدين ولا الجهاد ؛ ويقولون انه من الفروق بين المرأة والرجل أن لا تتزوج الا رجلا واحدا بينما يجوز للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة الى أربع اذا قدر على النفقة المعتادة والعدل المستطاع . وانه لا يصح ايقاع الطلاق منها الا أن يفوضه الزوج اليها ، ولا تصح منها الرجعة فى الطلاق الرجعى .

كل هذه الأشياء ولا شك تزهد فيها المرأة . فهى ولا شك زاهدة فى أن تؤم الرجال . زاهدة فى أن تحاذيهم فى الصلاة ، زاهــدة فى أن تخطب الجمعة والعيدين والآذان والاقامة وصلاة الجمعة الى غير ذلك . فليهنأ بذلك الرجال . ولكن كيف تزهد المرأة فى أن تكون انسانا ؟ كيف تزهد فى أن تكون شريكة واحدة لشريك واحد ؟ كيف تزهــد فى أن يكون

زوجها لها لا لأربعة نساء ؟ ولئن كانت الرخصة بالزواج بأكثر من واحدة الى أربع ، كانت لضرورة فأجازها الشرع ، فانه قد حوطها بسياج من التحرز جعل القيام بشرائطها ضربا من المحال فقال : فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . والمعنى الصريح لهذا القول العلوى ان استطاعة العدل محال ، واذن يكون الحكم هو التزوج بواحدة .

أما من حيث الطلاق ، فمقتضى النظام الاجتماعى ، يحتم علينا أن نقيم الاسرة على أساس أثبت من الأساس الذى يجعل للرجل حق الطلاق غير منازع فيه ، وأن نجعل الطلاق حقا للطرفين ، على أن يكون بحكم تصدره محكمة خاصة . والا فلا يقع طلاق مهما كان الأمر . أما الطلاق الرجعى فمعناه أن الرجل يبيع المرأة فى سوق الغضب ، ويشتريها فى سوق الرضى . يطلقها اليوم ويردها غدا كأنها السلعة أو السائمة . وأى درك أحط من ذلك الدرك تنزله المرأة ، فتترك غرضا ترميه سهام النزق والحمق والجهالة والسفالات .

— ٤ —

يقولون : « المرأة لا تسعد ولا تسعد غيرها الا اذا كانت محكومة » .

ولكن ما طبيعة ذلك الحكم ، وما هو مداه ، ولمن يكون الحكم ؟ ذلك مالم يبن عنه أولئك الذين يريدون أن يعموا

على الحق بخطابياتهم • اذا كان المعنى المستفاد من أن المرأة لا تصلح الا اذا كانت محكومة ، أن يكون ذلك بالخضوع للقوانين ، فانها والرجل سواسية من حيث ذلك • فان الرجل لا يسعد نفسه ولا يسعد غيره الا اذا حكمه القانون ، وسيرت خطاه الشرائع • أما أن يحاولوا بذلك القول أن يكون الحكم للرجل بمطلق ارادته الفردية ، وأن تكون المرأة خاضعة لذلك الحكم بلا أى ضابط ، فذلك نظام باد ومضى زمنه ، فان زمن الارادات الفردية أصبح اليوم حديثا يروى •

ينبغى أن ينظر فى قضية المرأة نظرة واسعة شاملة ، حتى يكون الحكم فيها ملائما لحاجات العصر مسايرا لمقتضى الحال• فان اللجوء الى خطابيات تقوم على مجرد آراء منقولة أو نصوص أريد بها الاشارة الى حالات عابرة لا تلبث أن تزول عندما تزول بواعثها ، أمر جد خطير • وكذلك لا ينبغى أن يؤخذ بما جرى عليه بعض القدماء من تأويلات كقولهم مثلا ان الاسلام لم يبح للمرأة أن تخرج من بيتها الا لضرورة تاركين تعريف هذه الضرورة لصاحب القوامة عليها وهو الرجل ، فأعطوا الرجل بذلك سلطة لا حد ولا ضابط لها • فله أن يأسرها أسرا طويلا وله أن يقدر الضرورة التى تضطرها الى الخروج من بيتها بمحض هواه • ولا شك فى أن كلمة الضرورة من الأشياء التى يمكن أن يضيق معناها أو يتسع بمحض الارادة ، لا سيما وأن تقدير ذلك متروك الى شخص ذى مصلحة خاصة فى تقدير

معناه . واذن يتراوح ذلك المعنى بين الشدة واللين بحسب الظروف التى تقوم بين من يريد أن ينتفع بالضرورة وبين من يقدر هذه الضرورة . وعلى الجملة فان كلمة الضرورة لم يقصد بها فى السماح للمرأة بالخروج من البيت الا أن يكون لأحد طرفى الشركة فى الزواج سلطة غير محدودة على حرية الطرف الآخر . على أن ذلك كله لا يمكن أن يكون ذا أثر فى توجيه الحياة فى عصرنا هذا . فان الضرورات التى تحمل المرأة على الخروج من بيتها فى عصرنا هـذا ولا شك غير الضرورات التى كانت تحمـل المرأة على مغـادرة بيتهـا فى الأزمان التى قيل فيها ذلك القول .ولكننا الى جانب هذا نذهب الى أن شرط الضرورة فى الاذن للمرأة بالخروج من بيتها لم يقصد به فى الواقع الا أن تستعبد وأن تسلب حريتها. ولكن ذلك لم يصبح ممكنا فى هـذا الزمن ، ولا نستطيع الا أن نقرر أن المرأة حرة فى الخروج من بيتها ، وأن أساس الحياة الصالحة أن يبادل الرجل المرأة ثقة بثقة ، فلا يفرض أنها مخلوق مشكوك فيه ، وانه مخلوق مبرأ من كل نقص .

— ٥ —

عمد الرجعيون الى اتخاذ القول بأن النساء ناقصات عقل ودين وانهن قد خلقن من ضلع أعوج ، مبررا لأن تكون المرأة تبعا للرجل . تبعا لارادته وجزءا من متاعه ، وانها لنقص الدين وصغر العقـل وخلقها من ضلع أعوج ، لا ينبغى أن يكون

لها حق الحرية أو حق الحياة الا بقدر ما يبيح لها الرجل من الحرية ومن الحياة الانسانية •

أول شيء لا أستطيع عقلا أن أسلم بأن ذلك القول قد صدر عن النبي صلاة الله عليه وسلامه ، وانها من قبيل ما نقل الينا من الأحاديث التي لا يقبل عقل أنها صدرت عن النبي ، لشدة الفارق بين صغر ما نقل وعظمة المنقول عنه • فهل أعقل مثلا ان النبي قد قال « من أكل فليلعق أصابعه أو يلعقها غيره » ؟ كلا • من المستحيل أن أعتقد أن ذلك القول قد صدر عن النبي ولو صح سنده • ومثله القول بأن النساء ناقصات عقل ودين ، في الوقت الذي تواتر فيه أن كبار الصحابة قد أخذوا عن عائشة ثلثي الدين • وما عائشة الا من النساء • فكيف نوفق بين هذا القول وبين اقبال كبار الصحابة على عائشة يأخذون عنها ثلثي الدين بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام ، مع أنه قد كان بين عائشة والصحابة تلك الوشائج التي نعرفها ، من حيث العلاقة ومن حيث الزمن •

أما ان النساء قد خلقن من ضلع أعوج ، فكلام لا يستقيم مع الواقع • لأن كل الضلوع بها عوج • والقول بأنهن خلقن من ضلع أعوج يوجب وجود ضلوع مستقيمة • وهذا تناقض لا يصدر عن النبي • وكذلك فيه تناف مع حقائق العلم الحديث ، لأن نظرية خلق الأنواع خلقا مستقلا قد أفسحت الطريق لنظرية التطور العضوي ، فلم يصبح لها من الشأن ما يصح أن يحتج به لا في العلم ولا في غير العلم •

أما اذا نظرنا فى الرجل والمرأة ، لنرى أيهما أحق بأن يوصف بأنه ناقص العقل والدين ، لرأينا أن المرأة أحق من الرجل بأن توصف بأنها أكمل دينا ، وان لم نستطع القول بأنها أكمل عقلا ، فاذا كانت وصايا الأديان جميعا قد هدفت الى أن يستقيم المجتمع ، فالمرأة أكثر مراعاة لوصايا الدين من الرجل • فاذا أخذت مثلا احصائية الجنايات ، وبخاصة جنايات القتل ، لما وجدنا فى تلك الاحصائية حادث قتل واحد ارتكبته امرأة اللهم الا النـادر اليسير ، ولوجدنا أن بين جناية القتل التى يرتكبها رجل وأخرى ترتكبها امرأة ، فارقا فى طريقة القتل يدل على مقدار ما فى جناية الرجل من وحشية، وما فى جناية المرأة من أثر التردد وتخفيف الموت على المقتول• وكذلك نجد فى أكثر الأمر أن القتل الذى ترتكبه امرأة فيه عنصر من التحريض أو المساعدة مصدره الرجل •

وعلى ذلك فقس السرقة والسطو والتزوير والاغتصاب وغير ذلك من الرذائل التى ما أرادت وصايا الأديان الا أن تكف عنها الانسان • فان جميع هذه الوصايا أصبح اتباعها وقفا على المرأة دون الرجل • فأيهما اذن أكمل دينا : المرأة أم الرجل ؟

نترك الجواب عن ذلك لمن له عقل يحكمه أو ضمير يحاسبه •

الفصل الثامن

عصرنا عصر الحضارة الاقتصادية ـ قوة الحشد أساس من أسس الحرية والاستقلال السياسى ـ الاستقلال الاقتصادى ـ دعامة الاستقلال السياسى ـ ينبغى ان تحشد قوانا الانتاجية اذا أردنا الفوز في معمعة التناحر على البقاء ـ الدفاع عن حقوق المرأة مسألة تتعلق بعوامل عالمية ـ العلم الحديث انجيل الحضارة الحديثة ـ حرية الفكر أساس الاصلاح اجتماعيا واعتقاديا ـ مثال من تاريخ الكنيسة ازاء حرية الفكر ـ قضية المرأة قضية عدل وحق وحرية .

أسباب ونتائج

— ١ —

العصر الذى نعيش فيه عصر تقوم حضارته على الاقتصاد. ومعنى هذا أن أساس الحياة الحرة فيه أصبح اقتصاديا صرفا، على العكس مما كان فى العصور الأولى . فان أساس الحياة اذ ذاك كان قائما على القوة العسكرية . واليوم تقوم القوة العسكرية على القوة الاقتصادية ، وعليهما تقوم الحياة الحرة. فالأمة التى تضعف اقتصادياتها تضعف قوتها العسكرية ، فيصيبها الكلال وتقع فريسة لمطامع الدول الاخرى التى اكتملت قوتها اقتصاديا وعسكريا .

نقدم بهذا لنقول ان الحياة الاجتماعية انقلبت آينها ، فلئن قامت الحياة الاجتماعية قديما على قوة العضلات والجرأة والبطولة المستندة الى السيف والحربة والمزراق ، وكانت جميعا من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ، لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع . كما انها الى جانب المصنع تقوم أساسا على قوة العلم الذى يؤسس المصنع ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والأمم الحديثة انما تعتمد فى تشييد ذلك كله على ما نسميه هنا — «قوة الحشد» — ونقصد به حشد جميع قوى الأمة ثم توزيعها على المرافق العامة توزيعا يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التى تتطلبها الظروف أو تدعوا اليها السياسة التى توجه فيها خطى الأمة .

هذا الانقلاب الكبير القائم أساسا على طريق حشد القوى ، لم نؤمن نحن المصريين بعد بمقدار ماله من أثر فى تكييف حالات المجتمع ، وما يترتب عليه من تبدل فى مثاليات الأمة ، وما يصدر عنه من ارتقاء فى أخلاقها . ذلك بأن حشد القوى الكاملة للأمة يشعرها دائما بأن بين طبقاتها تكافلا يحتم على كل فرد من الأفراد أن يقوم بالواجب المفروض عليه لخير المجموع كله .

جرت ألمانيا فى العهد النازى على هذه الطريقة ، كما جرت عليها ايطاليا فى العهد الفاشى ، وتجرى عليها الآن روسيا فى عصر ما بعد الحرب ، وتنافسها فى ذلك أمم الغرب . فالأمم قائمة اليوم بحشد جميع قواها لكى تفوز اذا جد

الجد وحزب الأمر فى معمعة التناحر على البقاء • على أن التناحر على البقاء لم يصبح فى عالم الانسان كما كان فى عالم الحيوان تناحر فرد وفرد، بل أصبح تناحر جمعية وجمعية ، بل تعدى ذلك الى تناحر جماعات من الأمم ازاء جماعات أخرى • وهى صورة من التناحر الحيوى يفوز فيها الذين يكملون بالحشد الصناعى والعلمى والانتاجى ، قوتهم الاقتصادية والمادية •

هذه الحال تتطلب من كل أمة أن توقظ فى أفرادها ، رجالا ونساء ، روح التكافل حتى يشعروا بالمسئوليات الملقاة على عواتقهم ، ويشاركوا ، كل بمقدار استطاعته ، فى الانتاج بأقصى حدود الامكان ، مع الاقتصاد فى النفقة فى حدود ما يتطلب ذلك الانتاج • وما نقصد بالاقتصاد فى النفقة الا نفقة الجهد ونفقة المادة •

ولقد شعرت الأمم بما يحفزهم الى العمل على حشد القوى ، منذ أن بدأ الانقلاب الانتاجى الحديث ، اذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق فى معركة التنافس التجارى ، ثم شعرت بعد قليل أن الفوز فى معركة التنافس التجارى يتطلب منها الفوز فى معركة الدفاع والهجوم والتنود فى ميادين القوة العسكرية • ولقد بلغت هذه الحال قمتها العليا فى الحربين الأخيرتين ، اذ بان جليا أن الأمة التى تكمل حشودها تكون فرصتها فى الفوز أكبر وانتصارها

أضمن . ومن ثمت حتى الآن نرى العالم كله وقد أخذت كل أممه تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز فى المعركة المقبلة ، وانها لمعركة واقعة لا محالة .

لقد حشدت ألمانيا وايطاليا قواهما ، والآن تحشد روسيا قواها ، وتعبىء أمم الغرب جميع مواردها . حشدت ألمانيا وايطاليا كل القوى التى يمكن أن تستمد فى عضلات الرجل والمرأة ، واليوم تحشد روسيا وأمم الغرب كل قواها الحيوية بلا تفريق بين مصادرها . كل هذا لأن الأمم تشعر بأن أى تفريط فى حشد هذه القوى سيكون له أثر سىء فى فوزها فى المعركة المقبلة ، ومن هنا كان الافتنان فى تنظيم الانتاج بسنوات خمس أو سنوات عشر ، ومن هنا كان الاهتمام بدور العلم والمعاهد العالية ، ومن هنا كان البذل فى سبيل الاختراع والاستكشاف .

— ٢ —

فى عالم مثل هذا العالم الذى وصفنا ، وفى معركة تحشد فيها كل قوى الأمم التى من حولنا ، وفى وسط الجلبة العالية التى تدعو الأمم الى الأخذ بجميع أسباب الانتاج ، يحاول البعض منا ارضاء لنزعات طيبة أو غير طيبة ، ولكنها على أى حال نزعات رجعية ، أن يفككوا قوى الأمة ويردوا نصف الأحياء منا قعيدات فى البيوت ، مفضلين حياة الحريم كما فهم فى عصر المماليك وغيره من العصور ، على حياة الجهد والعمل

والانتاج ، ويعملون مقتنعين ولكن على أساس خاطىء ، بأن أمة محمد بخير ، وان لاضرورة تحفزنا الى حشد القوى على الصورة التى يتبعها غيرنا من الأمم ، كأننا فى عالم غير العالم الذى تتناحر فيه هذه الأمم ، وكأننا لسنا قاب قوسين أو أدنى من ميدان المعمعة العالمية .

ان الأسباب التى تحملنا على الدفاع عن حقوق المرأة فى الحرية والعمل والمساواة فى الحقوق المدنية والسياسية ، انما هى أسباب لا تتعلق بحالنا الاجتماعى وحدها ، بل تتعلق أيضا بما يجرى فى هذا العالم من أحداث الاجتماع والسياسة. تلك الأحداث التى تلفنا لفا وتسوقنا سوقا نحو الهدف المخبوء فى صدر المستقبل ، ذلك الهدف الذى ان جهلناه ، فلسنا نجهل أننا نعيش فى عالم أساس الحياة فيه قوة المصنع وقوة الاقتصاد ، وعلى الجملة قوة الحشد التى تخرج من المصنع مصنعا كامل النفع ، وتقيم الاقتصاد على أساس من القدرة الذاتية للأمة .

نساق فى هذه السبيل رغم ارادتنا وحتف أنوفنا . هذا اذا أردنا الحياة كريمة ، أما اذا أردنا الموت ، فمن ذا الذى سوف يأسف لأن أمة تدعى الأمة المصرية قد ارتد افرادها عبيدا لغيرها من الأمم ؟

هذه حقائق واقعة لا ينبغى أن يعمى عليها بمثل الخطابيات التى يسوقها فئة ممن لا يدركون من أحوال هذا العالم الا قدر ما تشغل أحذيتهم من كرة الأرض .

— ٣ —

ان السبب الأعظم فى جميع ذلك ، بل وفى جميع ما نشعر به من قلق اجتماعى ونقص فى معاهدنا وأنظمتنا ، اننا لم نؤمن بعد بالعلم . وزدنا الى عدم ايماننا بالعلم كارثة أخرى أنكى وأدهى ، هى اننا لم نحرر عقولنا . فعلقنا مصالحنا المادية على ارتجالات رجال السياسة ورجال الأحزاب ، وانفنا أن نواجه الحقائق وأن نواقع الأمور كما هى كائنة ، خضوعا لتقاليد ورثناها ، وما نزال نستمسك بها بعد أن أبلاها الزمن وأبلتها الأحداث ، وبعد أن خلفها تطور الانسان أخلاقا بالية ، وأشتاتا متنافرة .

لقد نظرنا فى مشكلة المرأة كما نظرنا فى غيرها من المشاكل محكمين عواطفنا منساقين بمشاعرنا خاضعين لتقاليد الأزمان الماضية ، تلك التقاليد التى ان طبعنا عليها أولادنا ونساءنا بؤنا بهم الى ظلمة الجهالة وارتددنا بهم الى أساطير الأولين .

فكم من معارك قلمية طار غبارها وكم من مواقع فكرية خيضت غمراتها ، وكم أنفقنا من الزمن ومن الجهد ، فى سبيل اقرار أمور هى من البيان والوضوح بحيث لا تحتاج الى دليل يقام أو برهان يدلى به . ولقد أذكر أن فئة أهل الرجعية قد كابرت ومارت ونادت بالويل والثبور وعظائم الامور ، عندما انشئت الجامعة وأريد أن يكون التعليم فيها مختلطا بين الفتيان والفتيات ، وكانت حجتهم الكبرى أن هذا الاختلاط

مفسد للخلق داع الى الفسق والبغى ، ذلك فى حين أن الفتى والفتاة يلتقيان فى الشارع وفى الترام وفى قطار سكة الحديد وفى المتجر ، وفى الشارع والحديقة والمطعم والمسهر والمسرح والسينما ، كأنما التقاء الفتى بالفتاة فى حرم الجامعة وحده هو الذى سوف يسقط الأخلاق ويحل رابطة الفضيلة . ولكنها التقاليد ، تقاليد أن المرأة نصف انسان ، وانها مباءة الرذائل الخلقية ومستكن الفسق والفجور ، هى التى تملى على بعض العقليات ما تملى من تلك المتناقضات الشاذة العجيبة تقاليد أن الرجل وحده هو الكائن ذو الفضيلة فى هذا الوجود ، وان المرأة هى الكائن ذو الرذيلة . تقاليد الحريم وما الى الحريم من ترهات العقيدة والجمود ، تلك الترهات التى كانت السبب الأكبر فى أن تتخلف عن ركب الحضارة ، كما كانت السبب فى أن نستذل ونستعبد . تتوالى علينا الخطوب والكوارث ويتوارثنا الغزاة والفاتحون ، ونحن وقوف نشهد تقلب الدول وتوالى الاحداث ، وأفواهنا مفغورة يسيل منها لعاب البله والبلادة والحمق .

فاذا ما أخذت عضلاتنا تكتمل ، وقوتنا تتهيأ ، واذا ما أخذنا نلبس ثوب القوة والعافية ، واذا ما أخذنا نضرب فى سبيل الرجولة والحرية والديمقراطية ، رفعت التقاليد رأسها لتقول لنا الى الوراء أيها التقدميون !!! وليتهم يذكرون كلمة « التقدم » أو كلمة « الارتقاء » ! وانما هم ينعتون كل مصلح تحررت أفكاره وأدرك سير الزمن ، بأنه

من المنافقين ، ان لم يقولون أنه مرتد أثيم ، متخذين فى ذلك أسـلحة هم أنفسهم يعلمون أنهـا أسلحة كليلة لا تقطع فى محز الأشياء •

— ٤ —

ينبغى لنـا اذا ما أردنا أن نضرب بسهم فى هذه الحياة الجـديدة أن تتحرر • تتحرر من التقاليد ومن الأفـكار العتيقة التى أصابها الانحلال والفسـاد • تتحرر من الآثار التى ورثناها عن أزمان خالية ، تلك التى ان صلحت لزمن فقد مضى زمانها ، وان أرضت فى العصور الخوالى نفوسا وأرضت مشاعر ونزعات ، فقد ماتت تلك النفوس والمشاعر والنزعات ، وتبدلنا منها نفوسـا جديدة ونزعات ومشاعر تلائم روح العصر الذى نعيش فيه ، وتتفق وسير الحضارة التى أخذت بخناقنا بل وبخناق العالم أجمع ، تلك الحضارة التى نحاول أن ننفلت من أقطارها زورا وتدليسا على الحق وعلى الواقع •

على أن الصيحة كلما علت بتحرير الفـكر ، علت الى جانبها صيحة بتقييده • وفى هـذه المسألة بالذات لم تتعظ بما عالج غيرنا من الأمم فى مثل ذلك • فان التقاليد اللاهوتية التى عانت أوربا من آثارها ما عانت ، والآراء والعقـائد الفائلة التى أخضعت العقـل والفكر لأثرها أكثر من عشر قرون طوال فى العصور المظلمة وفى العصور الوسـطى ،

وردحا طويلا من العصر الحديث ، قد شنت على الفكر الحر حربا عوانا طويلة الأمد ، استعملت فيها أسلحة من أمضى ما يتسلح به ذوو السلطة الذين حاولوا أن يحافظوا على سلطانهم ، لا لصالح الجماعة الانسانية ، وانما لمجرد التسلط على الناس والاحتكام فى اراداتهم وفى حرياتهم . هذه التقاليد التى استمدت سلطانها من الكنيسة التى استمدت سلطانها من الله ، ما دخلت معركة من معارك الفكر ولا خاضت وقعة من وقعات العقل ، الا انهزمت فيها هزيمة منكرة ارتدت فيها على أعقابها محاولة التوفيق تأويلا أو تحويرا بين حقائق العلم والاجتماع وبين ما استمسكت به من آراء وأفكار ونقول ومسموعات ، بعد أن قاومت العلوم العملية والنظرية ، وحاولت أن تبلور المجتمع وتمنع عليه التطور والارتقاء ، بل أرادت أن تعقد المجتمع على صورة بلورات جامدة ، تمثل كل بلورة منها ناحية من نواحى الحياة . ولكن كل هذه الهزائم الكبيرة التى انتابت التقاليد اللاهوتية ، لم تنتج الا خيرا . خيرا للمجتمع وخيرا للكنيسة . فضربت الجامعات الاوربية فى مدارج التقدم والفلاح ، وأقامت الكنيسة قواعدها على أسس جديدة توافق مقتضى الحالات التى جدت فى الحياة ، فقام ضرب من التكافؤ بين الفكر والمعتقد . ومع هذا الانقلاب البعيد الأثر الرائع الصورة ، لا تزال الكنيسة قائمة ثابتة ثبات الرواسى فلم تتزحزح ولم تمد بها الأرض ، وتبدل الناس من الفضائل

النظرية بفضائل عملية صرفة ، وتحورت الأخـلاق بحيث أصبحت أكثر مواءمة لما تتطلب حياة الناس من حرية .

ولم يكن انطلاق الفكر من أسر التقـاليد اللاهوتية بالأمر المتعمل المفتعل افتعالا . بل انه كان ولا ريبة استجابة لمقتضى تطورات اختمرت فى العقـول والنفوس ، فـكان من المحتوم أن تخرج الى حيز العمل وكان لزاما أن تسجل آثارها فى جبين هذا العصر .

فاذا دافعنا عن قضية المرأة فانما ندافع وملؤنا اليقين الثابت فى ذلك . انما ندافع عن قضية كملت مقدماتها ولم يبق الا أن تظهر نتائجها فى عالم العمل والتطبيق . قضية أقامها الفكر الحر وحكم فيها العقل ، وتجمعت فى هذا الزمن جميع عناصرها التطورية . قضية فيها من العدل والحق ما يجعلها جديرة بأن تكون موضع عناية الأحرار فى كل زمان ومكان .

القاهرة فى ١٧ من يونية ـ ١٩٤٩

فهـــرس

صفحة

القسم الأول : تطور مشكلة المرأة فى العالم الغربى . . ١

الفصـــل الأول ٣

الفصل الثانى ٣١

الفصـــل الثالث ٦٢

القسم الثانى : حقائق واضحة فى تطورنا الاجتماعى . . ٩٣

الفصـــل الأول ٩٥

الفصل الثانى ١١٥

الفصـــل الثالث ١٣٥

الفصل الرابع ١٤٧

الفصل الخامس ١٥٩

الفصل السـادس ١٦٧

الفصـــل السابع ١٨٢

الفصل الثامن ١٩٣

تنبيه

وقعت أخطاء فى بعض صفحات الكتاب ؛ ونحن مع اعتذارنا عنها للقارىء ، نود أن نقول أنها مما يدرك لأول وهلة ، فضلا عن أنها مما لا يغير من المعنى المستفاد من سياق العبارات .

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة

١٩٤٩